روايات عالمية للجيب



قلعة الأسرار



تأليف : هوراس والبول
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المؤلف



الاسم الأصلى لهذه الرواية هو (قلعة أوترانتو : قصة قوطية) . لهذه الرواية أهمية أدبية خاصة ، هى أنها أول رواية رعب قوطى فى التاريخ ، بل إن تعبير (رعب قوطى) قد سُكَّ لأول مرة فى عنوانها .

(هوراس والبول Horace Walpole) شخص فريد من نوعه ، فهو شخصية سياسية مهمة (لو بحثت عنه على شبكة الإنترنت لوجدت المعلومات الأساسية تخصه كسياسى) وأرستقراطى ومهندس معمارى وكاتب شهير .

ولد الرجل فى لندن عام 1717م وتعلم فى كمبردج ، لكنه تركها دون الحصول على شهادة ، وهو تصرف معتاد بين أوساط النبلاء وقتها ، وصار يحمل لقب (إيرل أورفورد) وعضوًا فى البرلمان . وقد صمم بيتًا له فى (ستروبيرى هيلز) بطراز معمارى فريد ، هو الذى أطلق عليه مصطلح (الطراز القوطى) ،

وهو يختلف تمامًا عن الطراز الكلاسى المميز لهذه الفترة .. معنى كلمة (قوطى) حرفيًا هو جرمانى أو تيوتونى، وهو طراز معمارى شهير وجد فى غرب أوروبا فى القرن الثانى عشر، ويمتاز بالأقواس المدببة والأعمدة والقباب .. إنها تلك القلاع الرهيبة التى يعيش فيها مصاصو الدماء فى الأفلام.

فى ذات العام الذى اخترع فيه (جيمس وات) المحرك البخارى لتبدأ الثورة الصناعية ـ وهو العام 1764م ـ كتب (والبول) قصة (قلعة أوترانتو The Castle of Otranto) التى تقرؤها اليوم، لتكون نموذجًا للأدب القوطى الذى ساد القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وهو ضرب من الأدب الرومانسى المولع بالغموض. إنه رعب الكوابيس؛ حيث القلاع المظلمة والبروق والرعود والنفوس المعقدة المجنونة. وكلمة (الرومانسية القوطية) فى حد ذاتها تمثل مزجًا بين تأثيرين مهمين متناقضين فى أوروبا: الإمبراطورية الرومانية، والقبائل القوطية التى تحرشت بها.

إن الثورة الرومانسية أنتجت الرواية الاجتماعية المليئة بالمشاعر ورواية الرعب القوطية معًا، والمبدأ واحد؛ ألا وهو رفض أسس المجتمع العاقل.

يقول والبول إنه استلهم روايته من كابوس مخيف رآه وهو نائم فى ذلك البيت القوطى الذى ابتناه فى (ستروبيرى هيلز). هكذا نهض وظل يكتب .. أحيانًا كان يكتب من السادسة صباحًا حتى الواحدة من صباح اليوم التالى، وحتى تسقط ريشة الكتابة من يده المرهقة.

نشر الطبعة الأولى من الرواية تحت اسم مستعار هو (مورالتو)، مع زعم أنه مؤلف إيطالى كتب هذه الرواية بلغته، وقد تم العثور عليها لدى أسرة بريطانية شمال البلاد وتمت ترجمتها. أى إن (والبول) اخترع شخصية مؤلف إيطالى لا وجود له، وزعم أن هذه الرواية مترجمة، وهو ما يشبه ما قام به (ابن المقفع) فى (كليلة ودمنة) التى زعم أنها مترجمة بالكامل عن الهندية[*]، كما يشبه عادة كاتب رعب آخر هو (ستيفن كنج) فى تقديم بعض رواياته تحت اسم (ريتشارد باكمان).

تحمس النقاد للقصة كثيرًا وكتبوا عنها مرحبين، ووصفوا (والبول) بأنه مترجم ممتاز، لكنه أعلن فى الطبعات التالية عن الحقيقة وعن كونه مؤلف القصة الوحيد. هكذا اكتشف النقاد فجأة أن القصة رديئة ركيكة!

(*) هناك بحث وافٍ يثبت هذه الحقيقة الغريبة فى كتاب (أديب الأسطورة عند العرب) لفاروق خورشيد، سلسلة عالم المعرفة، 284.

على كل حال ، كانت رواية (والبول) هى الجذوة التى أشعلت موهبة الكتابة لدى طابور من الأسماء ، منها (آن رادكليف) و(مارى شيللى) و(برام ستوكر) .. إلخ . ومن الطريف أن تطالعها اليوم ؛ لأنها تبدو كأنها كتيب تعليمى لمن يرغب فى كتابة الأدب القوطى ، أو كأن (والبول) يحاكى المدرسة التى أسسها محاكاة ساخرة .. طوفان من المواقف الميلودرامية والمصادفات الفاجعة فى فترة ثلاثة أيام فقط ! . وقد حفرت هذه القصة الكثير من القوالب الجاهزة فى الأذهان ؛ منها البطلة الشفافة الرقيقة التى تفقد وعيها عشر مرات فى الساعة ، والتى تركض شاحبة خائفة فى ممر طويل ، والقلعة المرعبة التى تضربها البروق طوال الوقت ، ولا تكف الريح عن الصفير فى أروقتها .. إلخ ...

قام والبول بجولات كثيرة فى أوروبا مع صديق له شاعر يدعى (جراى) ، وقد وصف هذه الرحلة فى مذكراته . إن خطابات (والبول) ومذكراته تمثل ثروة أدبية ضخمة لا يمكن تصورها ، خاصة لو عرفنا أنه ترك لنا ثلاثة آلاف خطاب !.. فى أحد خطاباته ابتكر كلمة serendipity التى دخلت قواميس اللغة الإنجليزية بعد ذلك ، والتى تعنى (موهبة العثور مصادفة على المفاجآت السارة !) ، وقد نحتها من اسم رواية هى (أمراء سرنديب الثلاثة) . يقول فى

مذكراته عبارةً عميقة وشهيرة جدًا : « هذا العالم كوميديا للذين يفكرون .. ومأساة للذين يشعرون » . لم يتزوج قط ، وعاش فى ذلك البيت المخيف طوال حياته حتى توفى عام 1797م ، وبهذا كان آخر إيرل لـ (أورفورد) .

د . أحمد خالد

مقدمة الطبعة الأولى (*)

تم العثور على العمل التالى فى مكتبة أسرة كاثوليكية عريقة تعيش شمال إنجلترا . وقد طبع فى (نابولى) فى العام 1529م . الأحداث الأساسية تعرب عن المعتقدات الشائعة فى أشد عصور المسيحية ظلامًا ، لكن الأسلوب خالٍ مما ينم عن البربرية . وقد كتبت الرواية بلغة إيطالية غاية فى النقاء .

لابد أن القصة كتبت بين عامى 1095م ، وهو تاريخ أول حملة صليبية ، والعام 1243م تاريخ آخر حملة . من الواضح ان أسماء الأبطال خيالية ، وربما تم تغييرها عمدًا . واكبت هذا العصرَ حرب شعواء على الخرافات تزعمها المصلحون ، ولربما كان من المحتمل أن أحد الرهبان الأذكياء قرر أن يحارب المجددين ، مستغلاً مواهبه القصصية كى يخلق جوًا من الخرافة والخوارق يرضى مزاج العامة . إنها مهمة أتمها ببراعة ؛ لأن هذا العمل أقوى تأثيرًا فى عقول مئات من العامة ، من كل ما كتب من عصر لوثر حتى اليوم .

(*) كل هذا كذب أراد به أن يحبك الخدعة كما قلنا فى المقدمة ، ولدرجة أنه ينتقد نفسه ؛ لهذا اختصرت هذا الجزء كثيرًا .

مهما كان غرض المؤلف ، فليس بوسعنا إلا أن نقدمه للجمهور اليوم كوسيلة تسلية ، ليس إلا .. كانت تلك العصور المظلمة تمتاز بالخرافة ، لدرجة أن أى مؤلف ما كان ليكون أمينًا مع مجتمعه إن لم يقدم هذه القصص ، وحتى لو لم يؤمن بها فعليه أن يقدم أبطال قصته مؤمنين بها .

من الطبيعى أن يكون المترجم متحيزًا للكتاب الذى يترجمه ، لكن القراء غير المتحيزين قد يكون إعجابهم أقل بهذا العمل منى . إلا إننى برغم هذا لست غافلاً عن عيوب المؤلف ، وتمنيت لو كانت العظة الأخلاقية أكثر نفعًا من هذه : خطايا الآباء يدفع ثمنها أولادهم وأحفادهم حتى الجيل الثالث أو الرابع .

أتساءل إن كان الطموح فى ذلك العهد يمكن أن يتوقف بسبب الخوف من عقاب كهذا ؟ وبرغم هذه العيوب فإننى أتوقع أن تروق القصة لقارئ الإنجليزية ، فإن حققت النجاح الذى أصبو إليه فإننى أعد بأن أقدم للقراء النص الإيطالى الأصلى ، وإن كنت اخشى أن يجلب على هذه الترجمة الكثير من الانتقادات . إن لغتنا الإنجليزية تفتقر إلى سحر الإيطالية بتنوعها وتناغمها . من العسير فى الإنجليزية أن تحكى شيئًا من دون أن تهبط بالعواطف جدًا أو ترتفع بها جدًا ، لكنى حاولت جهدى ، ويؤسفنى أن مؤلف هذه القصة لم يكرس موهبته لما خُلِقَتْ له فعلاً : المسرح .

لن أعطل القارئ أكثر من هذا ، لكنى أقول : إنه برغم أن الأحداث والشخصيات تخيلية ، فإننى أعتقد أن هناك أرضية واقعية لهذه القصة . أعتقد بلا شك أن مسرح الأحداث قلعة موجودة فعلاً . وثمة فقرات توحى بأن المؤلف يصف بناية يراها عيانًا .

هذا قد يغرى البعض بالبحث عن القلعة الحقيقية التى تمت فيها الأحداث ، فإن كانت كارثة قد حلت بها كما توحى الأحداث ، فهذا يزيد من شغف القارئ بالقصة وجاذبيتها .

الفصل الأول

كان لدى (مانفريد) أمير (أوترانتو) ابن وابنة . الثانية كانت عذراء بارعة الحسن فى الثامنة عشرة من عمرها ، واسمها (ماتيلدا) . الأول كان أصغر منها بثلاث سنوات ويدعى (كونراد) ، وكان فتى عاديًا لا يبشر بشىء لكنه كان حبيب أبيه ، الذى لم يبدِ أى حب نحو ابنته . وكان (مانفريد) قد اتفق على زواج ابنه من ابنة ماركيز (فيشنتسا) واسمها (إيزابيلا) التى اصطحبها مرافقوها إلى (مانفريد) . وقد اتفق على الزواج بمجرد أن تسمح حالة (كونراد) الصحية المتدهورة .

كان (مانفريد) متوجسًا بصدد حالة ابنه المتدهورة ، لكنه لم يقل شيئًا . لكن زوجته (هيوليتا) ـ وهى امرأة طيبة ـ كانت تَجسُر على ذكر خوفها من تزويج ابنهما فى هذه السن المبكرة ، خاصة مع صحته الواهنة ، لكنها لم تكن تتلقى إلا ردود أفعال تتعلق بخصوبتها ، وهى التى لم تمنح زوجها سوى طفل واحد .

لكن معارف الأمير كانوا أقل تكتمًا فى كلامهم ، وقد اعتقدوا أن سبب العجلة فى إتمام الزواج ، هو خوف الأمير من تحقق نبوءة قديمة تقضى بأن القلعة وسيادة (أوترانتو) سوف تغادر الأسرة إلى أسرة أخرى ، حينما يكبر المالك الحالى إلى حد أن تضيق عليه .

كان من الصعب فهم شىء من هذه النبوءة ، والأصعب فهم علاقتها بالزواج . لكن الناس كانوا غير مستعدين للتخلى عن رأيهم .

تقرر أن تكون خطبة (كونراد) الصغير فى عيد ميلاده .. وتجمع الحضور فى كنيسة القلعة ، وتأهبوا للقداس الاحتفالى ، لكنهم لم يجدوا كونراد نفسه . كان (مانفريد) نافد الصبر ، وهو لم ير ابنه ينسحب ؛ لذا أرسل أحد مرافقيه ليستدعى الأمير الصغير .

هُرِع الخادم إلى جناح (كونراد) وعاد جريًا متقطع الأنفاس وعيناه جاحظتان .. لم يقل شيئًا بل أشار إلى القصر .

أصيب الموجودون بالذعر والذهول ، ولم تدر الأميرة (هيبوليتا) ما أصاب ابنها ، لكنها فقدت وعيها من الذعر . أما (مانفريد) فكان أكثر تماسكًا وإن ضايقه هذا التعطيل للزفاف ، وسأل عما هنالك .. لم يرد الخادم . فقط ظل يشير إلى الفناء .. وبعد جهد استطاع أن يقول :

ـ « الخُوذة ! . آه !.. الخوذة ! »

جرى بعض المدعوين إلى الفناء ، فسمعوا من هناك صرخات وجلبة محيرة .. وبدأ (مانفريد) يتوتر لأنه لا يرى ابنه ، وجرى ليعرف بنفسه سبب هذا الارتباك .

بقيت ماتيلدا جوار أمها ، وفعلت إيزابيلا الشىء ذاته . والحقيقة أن ماتيلدا لم تكن تحمل حبًا كبيرًا للعروس .

كان أول ما وقعت عليه عينا (مانفريد) هو حشد من الخدم يحاولون رفع ما بدا له كجبل من الريش .. لم يصدق هذا الذى رآه .

ـ « ماذا تفعلون هنا ؟.. وأين ابنى ؟! »

هنا تعالت الأصوات :

ـ « رباه !.. الأمير .. الأمير !.. الخوذة . الخوذة ! »

صدمته هذه الأصوات الحزينة ، وشعر بتوجس لا يعرف سببه ؛ لذا مشى مسرعًا .. لكن يا له من مشهد تقع عليه عينا أب !

رأى ابنه ممزقًا إلى أشلاء ، شبه مدفون تحت خوذة عملاقة .. أكبر بعشر مرات من أية خوذة وقعت عليها عينا بشر .. وقد ازدانت بالريش ..

كان المشهد رهيبًا ولم يدر أحد كيف حدث .. لقد عجز الأمير عن الكلام لغرابة ما يراه ..

راح يحدق فى المشهد متمنيًا أن يكون (هلاوس) ، ولم يستطع أن يستوعب ما خسره . راح يتفحص هذه الخوذة القاتلة ، فلم تقدر أشلاء ابنه على تشتيت اهتمامه ودهشته من تلك الأعجوبة التى يراها ..

وكان الناس يعرفون كَلَفه بالأمير الصغير ؛ لذا لم يستطيعوا فهم سَبَب هذا الصمت الذى حل به كأنما البرق قد ضربه .. نقلوا الجثة إلى الرَّدهة دون أن ينتظروا تعليمات من (مانفريد) .

كان أول شىء قاله وهو شارد الذهن :

- « اعتنوا بالليدى إيزابيلا .. »

هرع الخدم إلى العروس التعسة فساعدوها كى تذهب إلى جناحها ، وهى أقرب إلى الموت منها إلى الحياة .

راحت (ماتيلدا) تُعْنَى بأمها ولم تفكر إلا فى تخفيف آلام أبويها ، أما إيزابيلا التى كانت (هيبوليتا) تعاملها كابنة لها ، والتى كانت ترد هذا الجميل بامتنان وحب ، فقد كانت راغبة فى تعزية (ماتيلدا) بدافع الصداقة ، لكنها لم تشعر نحو وفاة (كونراد) الصغير إلا بالرثاء .. ولم تشعر بخسارة كبيرة لفقد زيجة لم تعدها بالسعادة ، سواء من حميها (مانفريد) أو من عريسها صغير السن . كان حموها يبعث فيها الرعب بسبب غضباته غير المبررة ، برغم أنه كان يعاملها بتساهل يختلف عن معاملته للأميرتين اللطيفتين هيبوليتا وماتيلدا .

نقلت النساء الأم الثكلى إلى فراشها ، بينما بقى (مانفريد) ينظر إلى الخوذة ، غير مبال بالواقفين حوله .. كان يطرح أسئلة لكنه لم يتلق إجابات .

وسط هذه الحيرة كان هناك فلاح شاب قيل إنه من قرية مجاورة ، لاحظ أن الخوذة تشبه تمامًا تلك الموجودة على رأس تمثال بالرخام الأسود لألفونسو الطيب .. أحد أمراء الفلاحين . وهذا التمثال موجود فى كنيسة (القديس نيكولس) .

هتف (مانفريد) وهو يمسك بالفلاح الشاب من ياقته :

- « أيها الوغد !.. ماذا تقول ؟.. كيف تتلفظ بهذه الخيانة ؟ سوف تدفع حياتك ثمنًا ! »

لم يفهم الواقفون سبب غضب الأمير ، ككل شىء رأوه . الفلاح الشاب نفسه كان مذهولاً لا يفهم لماذا أثار غضب سيده ، لكنه حرر نفسه من قبضة سيده فى خليط من التواضع والكبرياء ، وانحنى فى احترام وسأل عن جريرته . إلا إن (مانفريد) أمر بالقبض على الفلاح ، ولولا أن أحاط به ضيوف الزفاف لكان قد فتك بالفلاح الشاب .

فى هذه اللحظات جرى بعض العامة إلى الكنيسة القريبة من القلعة .. عادوا فَاغِرِى الأفواه يؤكدون أن الخوذة غير موجودة على رأس تمثال (ألفونسو) .

سمع (مانفريد) هذه الأنباء فجن جنونه .. واندفع نحو الفلاح الشاب صارخًا :

ـ « وغد !.. وحش !.. ساحر !.. أنت من فعل هذا !.. أنت من قتل ابنى ! »

كان الجمهور فى حاجة إلى شخص فى متناول يدهم يمكن أن يخرجوا عصبيتهم فيه ؛ لذا التقطوا الكلمات من فم سيدهم ورددوا :

ـ « أجل !.. أجل !.. هو المسئول !.. لقد سرق الخوذة من مقبرة ألفونسو الطيب وهشم بها رأس أميرنا ! »

ولم يتذكروا الاختلاف بين الخوذة الرخامية التى كانت فى الكنيسة وتلك المعدنية التى يرونها أمامهم .. ولم يفطنوا لصعوبة ان يحمل شاب لم يبلغ العشرين خوذة ثقيلة كهذه ..

كان الأمير قد بدأ يهدأ قليلاً ، لكن الغضب قد استبد به من ذلك الفلاح الذى لاحظ التشابه ، وبدأ الإشاعات حول الموضوع ، لذا أعلن أن الشاب هو (نكرومانسر) من دون شك .. وأنه إلى أن تحقق الكنيسة فى الأمر ، سيسجن الفلاح الشاب تحت الخوذة العملاقة نفسها . سوف يرفعها ويضعه تحتها من دون طعام ، حتى لا يستخدمه فى خدمة فنونه الجهنمية .

كان من المستحيل على الفلاح الشاب أن يعارض هذا الحكم الظالم ، وفشل أصحاب (مانفريد) فى منعه من هذه القسوة .

لكن هذا التصرف راق للعامة لما فيه من عدالة .. هكذا يعاقب الساحر بأداته نفسها . ولم يخشوا أن يموت الفتى جوعًا ؛ لأنهم توقعوا أن تعينه مواهبه الشيطانية فى الحصول على طعام .

راقب (مانفريد) تنفيذ أوامره ، ورأى كيف أنها تنفذ فى رضًا من قبل العامة ، وعين حارسًا ليتأكد من عدم وصول طعام إلى الفلاح الشاب . هكذا عاد إلى حجرته بعد ما تأكد من غلق أبواب القلعة التى لم يبق فيها سوى أفراد أسرته .

وعلمت (ماتيلدا) أن أباها اعتكف فى غرفته ومنع مقابلة أى شخص له ، وأنه غارق فى الحزن من أجل موت أخيها . لم تكن تريد مضايقته ، لكنها بدافع من شفقتها عليه وأوامر أمها قررت أن تخرق هذا الحظر ، وقد دفعتها وداعتها ورقتها إلى أن تتجمد عند بابه بعض الوقت .. سمعته يذرع الغرفة جيئة وذهابًا بخطىً مضطربة .. هذا زاد من رعبها ..

هنا فتح مانفريد الباب فجأة ، ولما كان هذا وقت الشفق مع اضطراب عقله ، فإنه لم يميز القادم ، بل سأل فى غضب : من هذا ؟ قالت (ماتيلدا) فى رعب :

ـ « أبى الأعز .. هذا أنا .. ابنتك .. »

تراجع إلى الخلف وصاح :

ـ « اغربى !.. لا أريد ابنة !.. »

وأغلق الباب بقوة فى وجهها ..

كانت تعرف طباع أبيها ؛ لذا لم تكرر المحاولة . فقط هزتها هذه المعاملة القاسية ومسحت عينيها كى تتجنب أن تعرف (هيبوليتا) أمها بذلك ، برغم أنها سألتها فى قلق عن صحة (مانفريد) ، قالت ماتيلدا : إن الرجل بصحة جيدة ويتحمل خسارته فى رجولة .

سألتها هيبوليتا :

ـ « لكن ألن يسمح لى برؤيته وبأن أمزج دموعى بدموعه ؟.. أن أبكى على صدر سيدى خسارة أمّ ثَكَلَى ؟ . أم أنت تكذبين علىّ يا ماتيلدا ؟ أعرف مدى تعلق مانفريد بابنه .. أنا أخشى الأسوأ .. ساعدننى يا وصيفات ، فعلىّ أن أرى سيدى ! »

أشارت ماتيلدا لإيزابيلا كى تمنع هيبوليتا من النهوض .. هنا جاء خادم من طرف مانفريد وقال لإيزابيلا : إن السيد يرغب فى مقابلتها .

ـ « مقابلتى أنا ؟ !! »

قالت هيبوليتا :

ـ « هلم !.. قومى لمقابلته . أعتقد أنه لا يريد أن يرى الحزن فى عيون أسرته ويحسبك أكثر تماسكًا منًا .. هدئيه وخففى عنه يا إيزابيلا .. »

كان الليل قد حل ؛ لذا تقدمها الخادم وهو يحمل مشعلاً ، وكان مانفريد يجوب القاعة نافد الصبر . قال للخادم :

ـ « خذ معك هذا الضوء وارحل .. »

ثم ألقى بجسده على مقعد وأشار لإيزابيلا أن تجلس .

قال لها :

ـ « لقد أرسلت لك يا سيدة فى أمر بالغ الأهمية .. جففى دموعك .. لقد خسرت عريسك .. نعم .. وأنا فقدت الأمل فى استمرار ذريتى ، لكن كونراد لم يستحق جمالك ! »

ـ « كيف تقول هذا يا سيدى ؟!... هل تشكك فى الحزن الذى أشعر به ؟ »

ـ « لا تفكرى فيه ثانية .. لقد كان طفلاً تافهًا سقيمًا ، ولربما انتزعته السماء منى لأننى لا ألتمن بيتى عل أساس واهٍ كهذا .. إن ولعى الأعمى بهذا الصبى جعلنى أغفل عن أشياء كثيرة .. آمل أننا خلال أعوام سنشعر بالسعادة لموت كونراد ! »

لا تقدر الكلمات على رسم ذهول (إيزابيلا) .. توقعت أن هذا الكلام غرضه الإيقاع بها لأن مانفريد لا يراها حزينة بسبب مصرع ابنه ؛ لذا قالت :

ـ « لا تشك فى حنانى يا سيدى .. كنت سأمنح كونراد كل شىء .. لسوف أقدس ذكراه للأبد ، وأنظر إلى سموك وهيبوليتا الطاهرة كأبوين لى »

صاح مانفريد :

ـ « اللعنة على هيبوليتا !.. انسيها من اللحظة !.. باختصار يا بنتى أنت فقدت عريسًا ما كان ليستحق جمالك .. بدلاً من هذا سوف تحظين بعريس ناضج قوى سوف تمنحينه ذرية كبيرة ! »

ـ « للأسف يا سيدى .. عقلى هزته الخطوب الأخيرة فلا يقدر على التفكير فى زيجة أخرى .. إلى أن يعود أبى فلسوف أظل هنا تحت سقف بيتك المضياف .. ولسوف أحاول أن أخفف من آلام ماتيلدا وزوجتك الكريمة .. »

قال (مانفريد) :

ـ « طلبت منك من قبل ألا تأتى على ذكر تلك المرأة .. يجب أن تكون غريبة عنك من هذه اللحظة . باختصار يا (إيزابيلا) .. ما دمت لم أقدر على منحك ابنى فأنا أمنحك نفسى ! »

صرخت (إيزابيلا) :

ـ « وا حسرتاه يا سيدى !.. ماذا أسمع ؟.. حماى القادم ؟.. أبو ماتيلدا وزوج هيبوليتا ؟ »

ـ « هيبوليتا لم تعد زوجتى .. لقد طلقتها الآن .. لقد جلبت لى اللعنة بقلة خصوبتها .. هذه الليلة سوف أمنح أحلامى موعدًا جديدًا .. »

وأمسك بيد (إيزابيلا) التى كانت شبه ميتة من الرعب ، فتملصت منه باكية .. نهض يلحق بها .. هنا دخل ضوء القمر إلى الغرفة ، فتبدى لعينيه الريش المميز للخوذة القاتلة التى ارتفعت وتضخمت حتى صارت بارتفاع النافذة . بينما دوى صوت معدنى أجوف .. هنا صرخت (إيزابيلا) :

ـ « انظر يا سيدى !.. السماء نفسها غير راضية عن فكرتك غير التقية ! »

قال وهو يمسك بمعصمها :

ـ « لا السماء ولا الجحيم بقادرَيْن على وقف خططى ! »

هنا صدرت تنهدة من صورة جده المعلقة على الجدار الذى يجلسان بجانبه ، وتحرك صدرها ..

لم تر إيزابيلا الصورة ولم تعرف مصدر الصوت ؛ لذا قالت :

- « أصغ يا سيدى !.. من أين يأتى هذا الصوت ؟ »

وهرعت إلى الباب ، لكن مانفريد لم يلحق بها لأن عقلـه كـان مع الصورة .. الصورة التى هبطت من الجدار لتنزل إلى الأرض ..

- « هل أنا أحلم ؟.. أم إن الشياطين جميعًا قد تحالفت ضدى ؟.. أنت أيها الطيف الجحيمى !.. لو كنت أنت جدى فعلاً ، فعلام تتحـالف ضدى بدلاً من أن تخفف عنى ؟! »

هنا تنهد الطيف من جديد وأشار لمانفريد كى يتبعه ..

مشى الطيف فى هدوء إلى نهاية الممـر ، ثم دخل غرفـة إلـى اليمين .. تبعه مانفريد على مسافة وقد امتلأ رعبًا ، لكنه امتلأ تصميمًا كذلك .. فما إن دخل الحجرة حتى انغلق الباب كأنما بيد خفية .

كانت (إيزابيلا) التى امتلأت رعبًا بدورها منذ فارقت مـانفريد ، تواصل ركضها إلى أسفل الدَّرَج .. هنـاك توقفت وهى لا تعرف إلى أين تفر من نزق الرجل . كانت الأبواب مغلقة وهناك حـراس على الأبواب ..

هل تذهب لتخبر هيوليتا بالمصير القاسى الـذى ينتظرها ؟.. لا .. سوف يذهب مانفريد أول شىء إلى هناك ، وسوف يؤذيها حتمًـا .. من الأفضل أن تنتظر حتى يهدأ قليلاً ، لكن أين تختفى ؟.. كيف تتجنب بحثه المحموم عنها فى أرجاء القلعة ؟

قررت أن تفر عبر ممر خاص إلى الكنيسة ، وقدرت أنه حتـى مانفريد لن يستطيع اللحاق بها هناك .. ربما تحبس نفسها للأبد مع الراهبات فى دير ملاصـق للكاتدرائية . هكذا أخذت مصباحًا مشتعلاً على أعلى الدرج وهرعت إلى الممر السرى .

كانت هناك ممرات طويلة ذات أعمدة أسفل القلعة ، وكـان من الصعب مـع شـخص فـى حالـة ذعرهـا أن يجد الممـر الصحيح . هنـاك كـان الصـمت مطبقًا ، ما عـدا الريح التى تهز هـذا الباب أو ذاك ، مع صريـر المُفَصَّلات الصدئـة . كل صوت كـان يفعمها ذعرًا ، إلا إنها كانت تخاف سماع صوت (مانفريد) أكثر .

كانت تصغى من حين لآخر لترى إن كان هنـاك مـن يتبعهـا .. وللحظة خيل لها أنها سمعت شهقة جمدت الدم فى عروقها ، فقـد أيقنـت أن هـذا هـو مـانفريد وأنـه حاصرهـا فـى مكـان لا يمكـن لصراخهـا فيـه أن يبلـغ مسـمع أحد .. لكنهـا أدركت أن الصـوت يأتى من الأمام ولو تبعها مانفريد لجاء صوته من خلفها .

هنا انفتح أحد الأبواب أمامها ، ورفعت المصباح لتتبين من القـادم ، لكنه توارى . كان هذا مخيفًا ، لكن خوفها من مانفريد كان أقـوى ، وقد منحها تحاشى هذا الشخص لها شجاعة . فلابد أنه مـن خدم القلعة ، وكانت ساذجة ؛ فقدَّرت أنه ما لم يكن مـانفرد قد أعطـى تعليمات واضحة فإن هذا الخـادم سوف يساعدها ولن يمنعها .

دنت من الباب الذى انفتح ، لكن هبة ريح قوية أطفأت المشعل وتركتها فى ظلام دامس . لا تقدر الكلمات على وصف رعب الأميرة .. وحدها فى مكان مخيف وقد أنهكتها أحداث اليوم العصيب .. والشعور بأنها فى متناول يد شخص ما لا تعرف من هو ... وهو شخص يفضل أن يتوارى لسبب لا تعرفه ..

مدت يدها فى الظلام إلى الباب الذى سمعت من ورائه صوت الشهقة ، وشعرت بسرور لحظى عندما رأت حُزمة من ضوء القمر تتسرب إلى الغرفة من سقف لا تعرف إن كان أرضًا أم بناء .. فى هذا السقف فتحة لا تعرف كنهها .. تقدمت نحو هذا الضياء عندما فوجئت بشكل بشرى يقف جوار أحد الجدران ..

صرخت وقد اعتقدت أن هذا هو شبح زوجها المتوفى (كونراد) ، لكن الشىء قال فى صوت خفيض :

ـ « لا تخافى يا سيدة .. أنا لن أوذيك .. »

استعادت روعها قليلاً من هدوء الصوت ، فقالت :

ـ « سيدى .. مهما كنت .. أشفق على أميرة مذعورة تقف على حافة الهلاك .. ساعدنى فى الهرب من هذه القلعة الرهيبة ، وإلا صرت تعسة للابد ! »

قال لها :

ـ « يا للأسف !.. أنا لا أعرف القلعة جيدًا ؛ فأنا غريب .. »

ـ « ساعدنى على البحث عن باب فى موضع ما هنا .. »

وجثت على ركبتيها وراحت تفتش عن حلقة نحاس تتمسك بأحد الأحجار ، وقالت :

ـ « هذا هو المَقْبِض الذى يفتح الباب والذى أعرف سره .. لو وجدته لظفرت بالفرار ، ولو لم أظفر به فإننى قد ورطتك معى أيها الغريب فى حظى العاثر .. لسوف يشك مانفريد فى أنك مسئول عن فرارى .. »

قال الغريب :

ـ « لا تهمنى حياتى ، ولو فقدتها فلسوف يسرنى أن أفقدها من أجل نجاتك من الطاغية .. »

هنا سقط ضوء القمر على المقبض الذى كانت تبحث عنه ، فهتفت :

ـ « هذا هو ما كنت أبحث عنه .. ارفع المقبض ! »

أطاع الغريب .. هنا ظهرت درجات تقود إلى ظلام دامس ..

قالت (إيزابيلا) :

ـ « هذه الدرجات تفضى إلى كنيسة سانت نيكولاس .. هذا مؤكد حتى لو كان الظلام دامسًا .. ولكنى أرى أنه عليك ألاَّ تغادر القلعة ، وخلال لحظات سأكون فى مأمن من غضبة مانفريد ، لكن دعنى أعرف لمن أنا مدينة .. »

قال الغريب :

ـ « لن أفارقك حتى أطمئن إلى أنك فى مكان آمن .. »

هنا سمعا جلبة تقترب ، واستطاعا أن يميزا هذه الكلمات :

ـ « لا تكلمنى عن الساحرة .. أنا أعرف يقينًا أنها ما زالت فى القلعة ، ولسوف أجدها برغم السحر الذى رمتنا به .. »

صرخت (إيزابيلا) :

ـ « رباه !.. هذا صوت مانفريد .. أسرع وأغلق الباب خلفك ، وإلا هلكنا ! »

هرعت عبر الدرجات فتبعها الغريب ، لكنه أغلق المقبض دون حذر ، ولم يستخدم طريقتها ، من ثم هوى الباب بقوة محدثًا ضوضاء عالية سمعها مانفريد وخدمه ..

صاح (مانفريد) وهو يهرع إلى القبو :

ـ « إنها إيزابيلا .. تحاول الهرب عبر الممرات تحت القلعة ، لكنها لن تبتعد .. »

ما أثار ذهول الأمير هو أنه لم يجد إيزابيلا ولكن وجد الفلاح الشاب الذى اعتقد أنه مسجون تحت الخوذة !

ـ « خائن !.. كيف جئت إلى هنا ؟!.. أنت فررت من الحبس وأثرت غضبى .. أنت خدعت حراسك ، ولسوف يدفعون بحيواتهم ثمن هذا ! »

قال الفلاح فى شجاعة :

ـ « حراسك أوفياء لك .. »

ـ « لكنك استحققت انتقامى .. سوف ينتزع التعذيب الحقيقة منك ، ولسوف أعرف شركاءك هنا ! »

قال الفلاح باسمًا وهو يشير إلى السقف :

ـ « هذا هو شريكى ! »

رفع الخدم المشاعل لأعلى ، ونظر مانفريد ليجد أن الخوذة الثقيلة عندما وضعت فوق الفلاح ، هشمت جزءًا من السقف محدثة فتحة .. من هنا نزل الفلاح قبل أن يقابل إيزابيلا بدقائق .

ـ « هكذا .. لكن ما سبب تلك الجلبة التى سمعتها فى الرواق ؟ »

ـ « باب ينغلق .. سمعته بنفسى .. »

ـ « وما هو هذا الباب ؟ »

ـ « لا أعرف شيئًا عن قلعتك ؛ فأنا لم أدخلها من قبل .. سلنى ما أقدر على إجابته ، وأمتنى فى الحال لو كذبت .. »

كان مانفريد يتمنى أن يعرف إن كان الفتى وجد الباب السرى أم لا .. فى النهاية سأله :

ـ « هل كان هذا صوت الباب السرى ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « وكيف عرفت بوجوده ؟ »

ـ « رأيت التماع ضوء القمر على المقبض النحاسى .. كان هذا هوعون السماء .. »

ـ « كان على عون السماء أن يتمادى قليلاً فيساعدك على الهرب من انتقامى .. عون السماء علمك كيف تفتح المقبض ، لكنه لم يعلمك كيف تستفيد من هذا .. ولماذا لم تهرب إذن ؟ . لماذا فتحت الباب وأوصدته ؟ »

ـ « كيف لى أن أعرف يا سيدى إن كانت هذه الدرجات تفضى إلى الهرب ؟.. ربما كان على أن أجرب ؛ لأن أى مكان هو أفضل لى من مكانى الآن ، لكنى تباطأت ، وسرعان ما وجدتكم حولى .. »

بينما الأمير فى هذا الموقف ، وهو يقاوم رغبته فى أن يُعجَب بشجاعة هذا الفلاح ، دوى خليط من الأصوات عبر الأقبية البعيدة .. وسمع بعض خدمه الذين نثرهم فى القلعة يبحثون عن (إيزابيلا) :

ـ « أين سيدى ؟.. أين الأمير ؟ »

قال لهم :

ـ « أنا هنا .. هل وجدتم الأميرة ؟ »

قال الأول :

ـ « رباه !.. نحن مسرورون للعثور عليك .. »

ـ « وجدتمونى ؟!.. هل وجدتم الأميرة ؟! »

تبادل الرجال النظرات المرتبكة ، وقال أحدهم :

ـ « جاك وأنا .. قد .. لا ، لم نجد الأميرة ، لكن الذعر كاد يقتلنا .. »

ـ « لا يدهشنى هذا يا أغبياء .. ماذا رأيتم ؟ »

ـ « رأينا ـ أنا ودييجو ـ منظرًا لا يوصف يا سيدى .. »

ـ « هلا أعطيتم إجابة مباشرة .. وإلا ؟ »

قال المدعو دييجو :

ـ « لقد أرسلتنا يا سيدى للبحث عن الأميرة ، لكننا كنا خائفين من أن نقابل شبح ابنكم المتوفى .. لأنه لم يدفن دفنة مسيحية محترمة .. »

ـ « اخرس !.. لهذا إذن أنتما خائفان ! »

ـ « كنت أفضل أن أرى عشرة أشباح على أن أرى ما رأيته !.. كنا نخشى أن يكون أحدنا وحده ؛ لذا مشينا أزواجًا .. وخطر لنا أن الأميرة قد تكون فى الرواق الكبير ؛ لذا صعدنا إلى هناك .. »

ـ « يا حمقى !.. وفى هذا الوقت فرت هى !!.. لأنكما كنتما تخشيان العفاريت .. »

ـ « ما وجدناه فى الرواق الكبير لا يمكن وصفه .. الشيطان نفسه على ما أعتقد موجود فى الغرفة الكبيرة المجاورة للرواق ! لا تذهب هناك يا سيدى .. »

حتى هذه اللحظة كان مانفريد يعتبر رعب خدمه نتيجة غباء مطبق .. لكنه تذكر ما حدث له ؛ فبدأ يهتم ..

ـ « ماذا فى الغرفة الكبيرة ؟ »

ـ « سيدى .. لقد دخلنا الغرفة الكبرى ونحن خائفان ، لكننا لم نر شيئًا .. بحثنا فى كل ركن فلم نر شيئًا .. حينما عدنا للباب وجدناه موصدًا .. »

ـ « ولم تستطيعا فتحه ؟ »

ـ « البتة يا سيدى .. حاول صاحبى دييجو فتحه .. هنا استجاب الباب ، فصرخ الرجل وجرى .. سألته عما رآه .. هل رأى شبحًا ؟.. قال لى وهو يجرى إنه رأى عملاقًا يلبس الدروع .. رأى أسفل رجله فقط .. وكان ضخمًا بما يتناسب مع الخوذة التى رأيناها .. يبدو أنه كان راقدًا ونهض ، فسمعنا صوت الدروع وصليل المعدن .. جرينا فارين ولم ننظر إلى الخلف لنرى إن كان يتبعنا أم لا .. الآن أعتقد أنه لو فعل لسمعناه .. فلتستدع القس يا سيدى ، لأننا متأكدون من أن القلعة مسكونة .. »

توسل إليه باقى الخدم كى يفعل ، فصاح فيهم :

ـ « هدوءًا أيها المخرفون !.. سوف أرى معنى هذا .. »

هنا قال الفلاح الشاب الذى ظل صامتًا :

ـ « هل تسمح لى سموك بتجربة هذا الشىء ؟.. حياتى لا تهم أحدًا .. »

نظر إليه مانفريد فى إكبار ، وقال :

ـ « طباعك أفضل من مظهرك .. فيما بعد قد أكافئك على شجاعتك ، أما الآن فلن أصدق أية عين سوى عينى أنا .. غير أن لك الحرية فى أن تتبعنى لو أردت .. »

اتجه إلى مخدع زوجته ، التى وثبت فى لهفة وكادت تلقى بنفسها على صدره ، لولا أنه دفعها فى غلظة وسأل :

ـ « أين (إيزابيلا) ؟ »

قالت ماتيلدا التى لم تفهم سبب لهفته :

ـ « لم نرها منذ استدعيتها لتقابلك .. »

ـ « قولى لى أين هى ... لا أريد أن أعرف أين كانت .. »

سألته هيبوليتا :

ـ « سيدى .. لابد أن (إيزابيلا) فى غرفتها الآن ؛ فهى غير معتادة السهر .. هلا قلت لى ما يضايقك إلى هذا الحد ؟ »

ـ « إذن أرسلى إلى قسك كى يقابلنى ، وانتظرى مفاجأتى السارة هنا .! »

ثم غادر الغرفة تاركًا السيدتين حائرتين فى معنى كلامه ..

جاء القس بعد قليل ، ليؤكد لمانفريد أن ما رآه بصدد الرجل والحذاء العملاق مجرد أوهام من الخدم المذعورين ، وكان مانفريد يرغب فى تصديق هذا ، لكنه لم يستطع .

كتم لمسة من تأنيب الضمير بسبب إذعان هيبوليتا وخوفها عليه برغم نواياه الشريرة تجاهها ، وأصدر أوامره للخدم بأن يغلقوا كل مداخل القلعة وألا يدخل أو يخرج أى مخلوق . وأمر بأن يبقى الفلاح الشاب فى غرفة صغيرة تحت الدرج ، بها فراش من قش ، واحتفظ بالمفتاح مع نفسه ، وقال للفلاح إنه سيتكلم معه فى الصباح .

★ ★ ★

الفصل الثانى

كانت ماتيلدا التى طلبت منها هيبوليتا أن تعتكف فى جناحها ، أكثر توترًا من أن تحظى بالراحة . لقد صدمها ما حدث لأخيها وأدهشها اختفاء (إيزابيلا) والكلمات الغريبة التى خرجت من أبيها . وامتلأ عقلها الرقيق بالتوجس .

انتظرت فى صبر عودة بيانكا وصيفتها الشابة التى أرسلتها لمعرفة ما حدث لإيزابيلا .. عادت بيانكا وأخبرتها بما عرفته من الخدم .. لا يمكن العثور على إيزابيلا فى أى مكان .. حكت لها قصة الفلاح الشاب الذى وجدوه ، وإن كان هذا بطريقة الخدم غير المترابطة .

كانت ماتيلدا تتساءل عن سبب قدوم القس .. أترى مانفريد يرغب فى أن يدفن أشلاء أخيها فى الكنيسة ؟

قالت بيانكا :

ـ « أوه يا سيدتى(*) !.. أعتقد أن أباك وقد صِرت وريثته الوحيدة يرغب فى أن يزوجك حالاً .. لقد كان متلهفًا على المزيد من الأبناء ويبدو أنه متلهف الآن على الأحفاد .. سوف تتزوجين بسرعة ، لكنك لن تنسى وصيفتك المخلصة بيانكا .. »

(*) My lady (سيدتى) تستخدم هنا للتأدب ، ولا علاقة لها بكون المخاطبة متزوجة أم لا ..

قالت ماتيلدا :

ـ « يا صديقتى الوفية .. لم أر أى نوع من الرقة فى مسلك مانفريد معى يؤيد ما تقولين . نعم هو أبى ، لكن إذا اختارت السماء أن ينغلق قلب أبى على ، فقد تركت لى قلب أمى .. أمى !.. لشد ما أشعر بالقسوة عندما يكشف عن طباعه الشريرة مع أمى !.. »

ـ « كل الرجال يعاملون زوجاتهم كذا عندما يسأمونهن ، والزوج السيء خير من لا زوج على الإطلاق .. ما هذه الضوضاء ؟! »

قالت ماتيلدا:

ـ « إن هى إلا الريح تهب عبر فجوات برج القلعة .. أنت سمعتها آلاف المرات .. »

ـ « حمدًا لله .. لكن تخيلى أن الأمير استدعاك غدًا إلى مجلسه .. وهناك وجدت أميرًا وسيمًا أسود العينين له جبهة ناعمة بيضاء .. صورة تشبه صورة (ألفونسو) الطيب فى معرض الصور .. الصورة التى تجلسين أمامها بالساعات تحلمين .. »

ـ « لا تتكلمى بخفة عن تلك الصورة .. تعرفين أننى مفتونة بها ، لكننى لم أقع فى حب صورة .. فقط هو التقديس الذى علمتنى أمى أن أقدمه لهذا البطل ، وكل الصلوات التى صليتها

فى قبره وأنا طفلة .. هكذا نشأت شاعرة بأن مصيرى يرتبط بـه بشكل ما .. »

ـ « لا أفهم يا سيدتى سبب اهتمام أسرتكم بألفونسو الطيب .. هو لا يمت لكم بصلة .. »

ـ « ربما لو فسرت لى أمى سر اهتمامهـا بألفونسو الطيب لفهمت أكثر ، فأنا أعرف أنها لا تخضع لنزوات مبهمة .. لابد أن هنـاك سراً لا أعرفه .. عندما توفى أخى ندت عنها كلمات غير مقصودة .. »

ـ « ماذا ؟!.. هل لى أن أعرفها يا سيدتى ؟.. تعرفين أن بوسعك أن تثقى بى .. »

ـ « بالنسبة لأسرارى الصغيرة نعم .. لكن عندمـا تتساقط كلمـات من فم الآباء فعلى الأطفال ألا يرددوها .. على الأبناء ألا تكون لهم أفواه ولا آذان إلا حسب تعليمات الآباء .. »

ـ « لو شئت الحقيقة يا سيدتى .. أنت ولـدت كى تكونـى قديسـة ، ويبدو أنه من المحتم أن تقضى حياتك فى دير .. »

ثم هتفت وقد أصابها الرعب :

ـ « أيتها العذراء المباركة !.. لقد عاد الصوت !.. هذه القلعة مسكونـة حتمًا ! »

قالت (ماتيلدا) :

ـ « أنا أيضا أحسبنى سمعت صوتًا لكنه خيال على الأرجـح .. لابد أن مخاوفك قد أصابتنى بـالعدوى .. هل هنـاك مـن يقيـم فـى الغرفة بالأسفل ؟ »

ـ « لم يقم أحد هناك منذ أن أغرق الفلكى الشـهير الـذى كـان يدرس لأخيك نفسه .. أعتقد أن شبحه وشبح الأمير قد التقيـا فى الغرفة السفلية . دعينا نفر من هنا ! »

ـ « لا أعتقد أن هذه الأشباح سوف تؤذينـا ؛ فنحن لـم نؤذهـا .. دعك مـن أنـه مـا مـن غرفـة أكثر أمنًـا من أخـرى .. نـاولينى المسبحة وتعالى نَتْلُ صلاة من أجلها .. »

هنا سمعتا صوت غناء يأتى من أسفل ..

قالت ماتيلدا لنفسها : إن هذا علـى الأرجح واحد مـن الأسرة وليس شبحًا على الإطلاق .. لم تجسر الخادمة على فتـح النـافذة ففعلت ماتيلدا هذا بنفسها ..

يبدو أن الشبح سمع الصوت لأنه كف عن الغناء على الفور ..

صاحت الأميرة :

ـ « هل من أحد تحت ؟.. إن كان كذلك تكلم .. »

جاء صوت مجهول يقول :

ـ « نعم .. »

ـ « من ؟ »

ـ « أنا غريب .. »

ـ « وكيف استطعت الدخول فى ساعة كهذه بينما كل الأبواب موصدة ؟ »

ـ « ليس هذا بيدى .. سامحينى .. لقد جافانى النوم وعجزت عن الرقاد على تلك الأريكة ، من ثم نهضت إلى النافذة وغنيت مشتاقًا إلى لحظة قدوم الصباح والسماح لى بمغادرة هذه القلعة .. »

قالت بيانكا :

ـ « الآن فهمت يا سيدتى .. حتمًا هذا هو الفلاح الشاب .. ويالها من مغامرة عجيبة !.. دعينا نكلمه فمن الواضح أنه لا يعرف من أنت ، ولكن يحسبك من وصيفات سيدتى (هيبوليتا) ، وأقسم بالله أنه عاشق .. »

قالت (ماتيلدا) :

ـ « ألا تخجلين من نفسك يا بيانكا ؟.. هذا الرجل يبدو طاهرًا صريحًا .. ليس من حقنا أن نتلصص على أسراره .. »

ـ « أنت لا تعرفين شيئًا عن العشاق يا سيدتى .. ليست لديهم لذة أكبر من أن يتكلموا عن حبهم .. »

هنا أغلقت (ماتيلدا) النافذة فى عصبية وحزم ، فقالت لها الوصيفة :

ـ « لا تنسى يا سيدتى أن عابر السبيل يرى من اللعبة أضعاف ما يراه اللاعبون .. من الغريب أن سيدتى (إيزابيلا) اختفت اليوم بالذات ، وهناك ذلك الفلاح الشاب الذى يقول الخدم إنه ساحر .. بصراحة يا سيدتى لو ربطت بين الحادثين لقلنا إن .. أنت تعرفين أن سيدتى إيزابيلا لم تكن مولعة جدًا بأخيك الأمير الفقيد .. »

صاحت (ماتيلدا) فى غضب :

ـ « كفى عن هذا السخف ولا تقولى كلمة أخرى .. أنت تعرفين نقاء إيزابيلا .. »

ـ « ربما كان هذا الفلاح أميرًا متنكرًا .. لو سمحت لى بأن أفتح النافذة وأوجه له بعض أسئلة .. »

هنا سمعنا رنين الجرس عند بوابة القلعة الخلفية ..

قالت ماتيلدا بعد تفكير :

- « لا أعرف سبب فرار (إيزابيلا) لكنى متأكدة أن له سببًا قويًا .. لكن لو كان لهذا الغريب دور فإنها ولابد مسرورة جدًا .. هل لاحظت كلمات هذا الفلاح وكيف تخلو من لغة السوقة والعامة ؟.. هذا شخص كريم المحتد .. »

- « قلت لك يا سيدتى إنه أمير متنكر .. »

- « لكن لماذا لم يفر معها ؟.. لماذا بقى وتحمل غضبة أبى ؟ »

- « لو كان بوسعه أن يفر من تحت الخوذة فلا يوجد ما يمنعه من الفرار من غضبة أبيك .. أنا لا أعتقد أن سيدتى إيزابيلا ملائكية تقية كما تعتقدين .. إنها تتنهد وتشخص بعينيها للسماء أمامك ، ولكن ذلك لأنها تعرف أنك ملاك .. »

هنا دخل خادم إلى الغرفة مسرعًا وأخبر ماتيلدا أن السيدة (إيزابيلا) قد تم العثور عليها .

- « أين ؟ »

- « لقد لجأت إلى كنيسة القديس نيكولاس .. الأب (جيروم) جاء بنفسه ، وهو فى الطابق السفلى مع سمو الأمير .. »

- « وأين أمى ؟ »

- « فى غرفتها .. وقد أرسلت تطلبك .. »

كان مانفريد فى هذا الوقت قد فوجئ بالزيارة المبكرة للقس راعى زوجته ، ولم تكن عنده أية فكرة عن سبب الزيارة .. وقد سأله :

- « هل تريدنى أم تريد الأميرة ؟ »

قال الأب جيروم :

- « أريد كليكما .. إن الأميرة إيزابيلا فى كنيسة القديس نيكولاس .. »

- « هذا إذن ليس من شأن هيبوليتا .. تعال لغرفتى يا أبت واحكِ لى .. »

- « لا .. »

قالها القس فى حزم أثار رهبة حتى مانفريد الفظ ، الذى برغم كل شىء كان يحترم طيبة القس ونقاءه ..

- « إن ما أريد الكلام فيه يخصكما معًا .. لكنى أريد أولاً أن أسأل الأميرة عما إذا كانت تعرف سبب فرار السيدة إيزابيلا من القلعة .. »

قال (مانفريد) :

- « أبت .. احترامى كامل لك ، لكنى هنا سيد بيتى ، ولا أسمح لكاهن متطفل أن يتدخل فى شأنى .. ليس لزوجتى أن تعرف أو تتعامل مع شئون حكمى .. »

قال القس :

- « سيدى .. أنا لا أتدخل فى الشئون العائلية .. عملى هو أن يعم السلام وأن أعظ الناس كى يرجعوا للصواب .. وإننى لأسامح سيدى على خطابه غير الكريم ، لكنى أعرف واجبى ، وأنا أعمل لمن هو أقوى وأعظم من الأمير (مانفريد) .. فلتصغ له .. »

ارتجف مانفريد عارًا وغضبًا .. وكانت زوجته قد جاءت وهى تتحرق شوقًا لمعرفة ما هنالك ..

قال القس (جيروم) :

- « السيدة (إيزابيلا) تشكركما بشدة على عنايتكما بها فى قلعتكما ، وهى آسفة على فقد الأمير الصغير ، وهى تصلى من أجل اتحاد لا ينفصم بينكما .. لكن بما أنه ليس بوسعها أن تبقى هنا أكثر ، فهى قد عهدت بنفسها إلى الملجأ حتى تسمع أخبارًا عن أبيها .. »

قال الأمير :

- « لن أوافق على هذا ، وأصر على أن تعود للقلعة .. أنا المسئول عنها ولا أثق بوجودها بين يدى أى شخص آخر سواى .. تصرف (إيزابيلا) يترك الكثير للشكوك والقيل والقال ، وخاصة مع ذلك الفلاح الذى ظهر ، وأعتقد أنه سهّل فرارها إن لم يكن سببًا له .. »

قال القس :

- « وواجبى أن أمنعها من العودة هنا .. هى الآن فى مأمن بعيدًا عن مغريات هذا العالم .. فلن أسلمها إلا لسلطة أبويها .. »

قالت هيبوليتا :

- « أيها الأب .. واجبك ألا تعلق قيمة على الأشخاص ، وواجبى ألا أسمع ما يضايق سيدى ؛ لذا اسمح لى بأن أعتكف فى حجرتى على حين تنفرد أنت بالأمير فى غرفته .. ولسوف أصلى كى تنجح فى إعادة السلام إلى قلب أميرى .. »

مشى مانفريد مع القس إلى جناحه الخاص ، وهناك أغلق الباب وقال :

- « أفهم أيها الأب أن (إيزابيلا) أخبرتك بغرضى .. والآن أصغ إلىّ .. سلامة حكمى وسلامة قومى تستدعيان أن يكون لى ابن .. من العبث أن أنتظره من هيبوليتا .. عليك أن تعيد لى (إيزابيلا) وأنا أنتظر منك المزيد ، فأنا أعرف تأثيرك على هيبوليتا .. إنها امرأة بلا خطايا تستقر روحها فى السماء .. عليك أن تقنعها بالامتثال لرغبتى ، وأن تقضى باقى حياتها فى أحد الأديرة .. سوف يسرها هذا .. وهكذا تريحنا من المشاكل المحيطة بنا وتجلب الاستقرار إلى (أوترانتو) .. أنت رجل خير ، وإننى لأثق بفضيلتك برغم ما قلته لك فى حدة .. »

قال القس :

ـ « حكمك يقضى بأن يكون لك ابن !.. ما أقل ما يعرف الإنسان ..!.. صباح أمس كان لك ابن ، وأنا لا أقصد أن أقلل من حزنك .. لكنى لا أرى خيرًا فى زيجة تدفعك لها الشهوة أو مقتضيات السياسة .. لو أراد الله أن يزول اسمك فعليك أن تقبل بهذا الحكم .. دعنا نعد لأميرتك يا سيدى .. رأيت كيف أصغت إليك فى طاعة وكيف انسحبت فى لطف .. أعرف أنها تتمنى أن تعانقك وتخبرك بمدى حبها لك .. »

كان القس يدرك أن نهاية هيبوليتا محتومة .. لو لم يظفر مانفريد بـ (إيزابيلا) فإنه سيغضب ، ولسوف يقوده غضبه إلى الانتقام من زوجته .. كما كان يعرف أن الكنيسة لن تسمح بالطلاق . هكذا قرر أن يماطل ويتظاهر بأن رفضه ليس نهائيًا .. هذه هى الطريقة المثلى لإنقاذ هيبوليتا .

كان مانفريد يحاول أن يعرف دور الفلاح الأسير فى هذه القصة .. هل هو حبيب إيزابيلا أم هو يعمل لطرف حبيب مجهول ؟.. هكذا راح الأب يلمح إلى أن هذا قد يكون صحيحًا .. وقد اعتقد أن هذا التلميح سوف يكون مفيدًا للأميرة ، لأنه يجعل الطاغية يكرهها ويزهد فيها ..

هكذا أشار مانفريد للأب كى يبقى حيث هو ، واندفع إلى جهة القلعة التى يوجد فيها الفلاح الأسير ، وهناك قال له :

ـ « أنت أيها المحتال الصغير .. قل لى أيها المخادع الشقى منذ متى تعرف الأميرة ؟.. من أنت ؟.. كن حذرًا ولا تجب بالمراوغة التى استعملتها معى أمس .. وإلا عرف التعذيب كيف يستخلص منك الحقيقة .. »

عرف الشاب أن دوره فى فرار الأميرة قد انكشف .. وعرف أن ما يقوله لن يؤذيها أو يفيدها ..

هكذا قال :

ـ « أنا لست محتالاً يا سيدى ، ولا أستحق هذه اللهجة المهينة .. لقد أجبت عن أسئلتك بصدق أمس ، وهذا ما سوف أفعله الآن ؛ لأن روحى تمقت الكذب .. »

عاد مانفريد يكرر أسئلته ، فقال الفلاح :

ـ « أنا عامل فى القرية المجاورة .. اسمى (تيودور) وقد وجدتنى الأميرة فى القبو ليلة أمس ، وقبل هذا لم ألقها فى حياتى .. »

قال مانفريد :

ـ « فيما بعد سوف أحقق فى صدق هذا الكلام ، لكن قل لى السبب الذى دفع الأميرة إلى الهرب .. تذكر أن حياتك تعتمد على إجابتك .. »

ـ « قالت لى إن حياتها تعتمد على الفرار ، ولو لم تفعل لظلت تعسة للأبد .. »

ـ « وعلى أساس هذه الكلمات جازفت بأن تثير غضبى ؟ »

ـ « لا أخشى غضبة أحد إذا طلبت منى امرأة الحماية .. »

فى هذا الوقت كانت ماتيلدا مع وصيفتها بيانكا فى طريقها لجناح أمها ، عندما مرت ببعض النوافذ ذات الفتحات الزخرفية ، ومن خلالها رأت أباها والخدم يلتفون حوله ، فاقتربت لتسمع المحادثة ..

أثار السجين إعجابها بثباته وخاصة جملته الأخيرة .. كان وسيمًا نبيلاً ذا شخصية قوية . لكن شيئًا فى ملامحه جعلها تتوقف :

ـ « رباه !.. هل أنا واهمة يا بيانكا أم إن هذا الفلاح نسخة من صورة ألفونسو فى قاعة الصور ؟ »

هنا تعالى صوت مانفريد :

ـ « هذا التبجح يفوق كل ما سبق .. ارْبُطوه ولسوف يكون أول ما تسمعه الأميرة (إيزابيلا) عن بطلها هذا هو أن رأسه قد طار ! »

قال تيودور :

ـ « هذه القسوة تؤكد لى أننى كنت على حق عندما ساعدتها فى الفرار .. فلتنعم بالسعادة مهما كان مصيرى ! »

قال مانفريد :

ـ « هذا عاشق وهو ليس فلاحًا .. ما من فلاح على حافة الموت يتكلم هكذا .. اعترف بشخصيتك يا بنى ، وإلا انتزعَتِ الحقيقةَ منصةُ التعذيب .. »

ـ « هذا هو جزائى على الصدق الذى قلته ، وهو جزاء لا يغرينى بالكلام أكثر .. »

ـ « إذن خذوه إلى الساحة .. سوف أتأكد من أن رأسه قد قطع فى هذه اللحظة بالذات .. »

هنا أغشى على ماتيلدا إذ سمعت هذه الكلمات ، بينما صرخت بيانكا :

ـ « الأميرة ماتت !.. الأميرة ماتت ! »

هكذا جرى الموجودون إلى مصدر الصراخ ليجدوا أنها مجرد حالة فقدان وعى ..

تم اقتياد الشاب إلى الساحة وصدر الأمر للجلاد بتنفيذ الحكم ..

تلقى الفتى الحكم القاسى بقبول هز قلب الجميع ما عدا مانفريد . كان الطلب الوحيد الذى أراده هو أن يُسمح له بالاعتراف ليموت فى سلام .

راق هذا الطلب لمانفريد ؛ لأن هذا قد يكشف لقس الاعتراف عن سر هذا الشاب ، وهكذا استدعوا الأب جيروم الذى اعتقد مانفريد أنه فى صفه .

لكن القس ركع على ركبتيه أمام الأمير وتوسل إليه كى لا يريق دمًا بريئًا .. حاول بكل طريقة أن يرقق من غضب الطاغية ، لكن هذا التوسل زاد من حنق الطاغية وإصراره على التنفيذ وقد بدأ يشعر بأن الكل يتآمر ضده ..

أمر القس بأن يتلقى الاعتراف ، وحذره من أنه لن يؤخر التنفيذ طويلاً ..

قال الشاب :

ـ « وأنا لا أرجو التأخير يا سيدى .. خطاياى ولله الحمد لم تكن كثيرة ، ولم يفق عددها ما هو متوقع فى سنى .. هذا عالم شرير أيها القس الطيب وليس لى أن أفارقه شاعرًا بالحسرة .. »

ـ « لا يمكن أن تنال السلام من دون أن تسامح أعداءك .. فهل بوسعك أن تسامح هذا الرجل الزنديق الواقف هنا ؟ »

ـ « سامحته يا أبى .. »

قال القس :

ـ « ألا يؤثر هذا فيك أيها الأمير القاسى ؟ »

قال مانفريد فى عناد :

ـ « طلبتك كى تسمع اعترافه لا كى تتوسل من أجل حياته .. أنت لمحت إلى أنه ذو علاقة بالأميرة ودمه على رأسك .. »

ـ « نعم . نعم .. دمه على رأسى .. أنا وأنت ليس من حقنا أن نذهب إلى المكان الذى سيذهب إليه هذا الشاب النقى .. »

ـ « هلم !.. لم أعد على استعداد أن أهتز لدى سماع توسل القساوسة ، كما لا أهتز لدى سماع بكاء النساء .. »

فتح الفتى ياقة قميصه وركع على الأرض ..

هنا سقط القميص عن كتفه فظهرت علامة سهم من نار .

صاح القس :

ـ « فلتتمجد السماء !.. ماذا أرى ؟ هذا طفلى !.. هذا تيودور ! »

لا يمكن وصف الانفعالات التى تلت هذا .. لقد تجمدت الدموع فى العيون عجبًا ، ونظر الجميع إلى السيد متسائلين عما ينبغى

أن يشعروا به .. شك .. حيرة .. احترام كلها تتالت على وجوه الشباب . بينما الفلاح يتلقى قبلات وعناق العجوز وهو ينظر إلى الأمير من حين لآخر كأنه يقول له : ألا يحركك مشهد كهذا ؟

نسى مانفريد غضبه فى دهشته .. حتى إنه قدر أن هذا الاكتشاف لعبة من القس كى ينقذ الفتى .

قال :

ـ « ما معنى هذا ؟.. كيف يكون ابنك ؟.. هل مما يتفق مع سمعتك وطهرك أن يكون لك ابن من أبناء الفلاحين ؟ »

قال القس :

ـ « رباه !.. هل تشك فى كونه ابنى ؟.. أنقذه !!.. أيها الأمير الطيب .. أنقذه واشتمنى كما تشاء ! »

صاح الواقفون :

ـ « أبق عليه .. أبق عليه من أجل العجوز الطيب ! »

قال مانفريد فى حزم :

ـ « الهدوء !.. لابد أن أعرف من تطالبون بالعفو عنه .. ابن القديس قد لا يكون قديسًا .. »

قال تيودور :

ـ « أيها السيد المؤذى .. لا تضف الإهانة إلى القسوة .. لو كنت أنا ابن هذا الرجل المبجل فإن الدم الذى يجرى فى عروقى .. »

هنا قال القس مقاطعًا :

ـ « نعم يا سيدى .. إنه نقى الدم وليس بالشخص الذى تتكلم عنه .. بيوت قليلة فى صقلية لها عراقة بيت (فالكونارا) .. »

قال مانفريد :

ـ « إذن أريد أن أعرف قصتك .. »

ـ « فقط هبنى حياته يا سيدى ، ولتقتلنى بعدها إن شئت .. »

قال مانفريد :

ـ « عد للدير .. هات الأميرة هنا .. أطعنى فيما طلبت .. ولسوف يعود لك ابنك حيًا .. »

ـ « سيدى .. هل أمانتى وصدقى هما ثمن حياة ابنى ؟ »

صاح الفتى :

ـ « فلتقتلنى مائة مرة ولا تلوث ضميرك يا أبـى .. مـاذا يريـد منك هذا الطاغية ؟.. هل إيزابيلا فى سلام آمنة فى ديرك ؟.. إذن دع كل غضبة الرجل تهبط على رأسى أنا .. »

فجأة سمع الجميع حوافر تضرب الأرض ، ودوى نفير خـارج القلعـة .. وفـى هذه اللحظـة تحرك الريش الـذى يحيط بـالخوذة العملاقة كأن شخصًا خفيًا يضعها على رأسه ..

★ ★ ★

الفصل الثالث

ارتجف قلب مانفريد وهو يرى الريش المحيط بالخوذة العملاقـة يهتز مع صوت النفير النحاسى .

قال القس :

ـ « سيدى .. السماء غير راضية عن معاملتك لخدمها وسخريتك منهم .. اصرف هذا الشاب البرىء لحال سبيله .. »

قال مانفريد وقد فقد الكثير من كبريائه :

ـ « أعترف بأننى كنت عجولاً .. أبت .. هلا قصدت الباب الصغير وسألت عمن يقف خارج القلعة ؟ »

ـ « هل تمنحنى حياة تيودور ؟ »

ـ « نعم .. لكن سل عمن يقف خارج القلعة .. »

ذرف جيروم دموعًا كثيرة على صدر ابنه تشى بما يثقل روحه وقال :

ـ « أعتقد أنك ستقبل شكرى لك أولاً قبل أن أذهب .. »

قال تيودور :

ـ « اذهب يا أبت .. أطع الأمير ، فأنا لا أستحق تأخير رغباته .. »

اتجه الأب إلى الباب وسأل عمن بالخارج فقيل له :

- « أنا رسول .. »

- « ممن ؟ »

- « من فارس السيف العملاق .. وعلىَّ أن أتكلم مع مغتصب عرش أوترانتو .. »

عاد الأب لمانفريد ونقل له الرسالة حرفيًا ..

أصابت الكلمات مانفريد بالوجوم ، لكن عبارة (مغتصب العرش) قضت على أى رعب لديه وجعلته يشتعل بالغضب ..

- « مغتصب عرش ؟.. كيف يجرؤ ؟.. تَنَحَّ يا أبت ولسوف أنهى الموضوع مع هذا الوغد بنفسى .. عد للدير ورتب عودة الأميرة لى ولسوف يبقى ابنك هنا رهينة .. حياته تعتمد على طاعتك .. لن تكون نجاة ابنك على يد هذا الرسول القادم ليشك فى شرعية عرشى ! »

وأمر بعض معاونيه بأن ينقلوا تيودور إلى البرج الأسود ، فلم يسمح للأب وابنه بتبادل عناق أخير . ثم سمح للرسول بالدخول :

- « هلم .. ماذا تريد ؟ »

- « جنتك يا مانفريد مغتصب إمارة أوترانتو من فارس السيف العملاق الذى لا يقهر .. فردريك ماركيز (فيشنتسا) .. وهو يطلب الأميرة (إيزابيلا) التى وضعتها فى قبضتك عن طريق الخيانة ، والتى رشوت الأوصياء عليها بينما أبوها متغيب .. كما إنه يطالبك بالتخلى عن أوترانتو التى اغتصبت إمارتها من لورد فردريك أقرب قريب بالدم للسيد ألفونسو الطيب .. فلو لم تقبل بهذا فهو يدعوك إلى المبارزة حتى الرمق الأخير .. »

سأله الأمير :

- « وأين ذلك المتبجح الذى أرسلك ؟ »

- « على بعد فرسخ من هنا .. لقد جاء لأنه فارس حقيقى وأنت مجرد مغتصب .. »

لم تكن هذه الاتهامات غريبة على مانفريد ولا مطالبة فردريك بالإمارة .. كان أجداد فردريك يحملون لقب أمراء أترانتو ، منذ موت (ألفونسو) الطيب ، لكن مانفريد وجَدَّه كانا أقوى من أن يتخلص منهم بيت فيشنتسا . ولقد تزوج فردريك فتاة لطيفة هام بها حبًا ، لكنها ماتت وهى تلد (إيزابيلا) ..

أحزنه موتها بعنف حتى إنه انطلق إلى الأراضى المقدسة حيث جرح فى الحرب وسجن ، وقيل إنه مات .

عندما عرف مانفريد بهذا قدم رشوة للوصيين على إيزابيلا لتكون زوجة ابنه كونراد ، وهكذا قرر أن يوحد البيتين معًا . وهذا هو سر تصميمه على أن يتزوجها بنفسه لدى موت كونراد .

قال مانفريد :

ـ « عد لسيدك وقل له إننا لانحل خلافاتنا هنا بالسيف .. قل له إنه مدعو لقلعتى ، وأقسم بشرفى كفارس أنه سيضمن أمنه ويلقى استقبالا كريمًا ، ولو لم نحل خلافاتنا بالمفاوضات فإننى أقسم أنه سيغادر القلعة آمنًا فى سربه .. »

فى هذا الوقت كان القس (جيروم) يفكر .. كان خائفًا على ابنه وفكر فى أن يقنع (إيزابيلا) بالعودة إلى القلعة ، لكنه كان يخشى لحظة لقائها بمانفريد .

كان يخشى خضوع هيبوليتا غير المشروط لزوجها .. برغم من ثقته بأنه يمكن أن يقنعها بأن طلاقها لن يكون مسموحًا به من الكنيسة ، هذا فقط لو استطاع الوصول لها ..

لكن لو شعر مانفريد بشىء لكان معنى هذا الدمار لتيودور . كان راغبًا فى معرفة ما تم مع الرسول الذى اتهم مانفريد باغتصاب الإمارة ، لكنه لم يجسر على مغادرة الدير . لربما فرت (إيزابيلا) ووقع الاتهام فى فرارها عليه هو .

قال له أحد الرهبان الذى قابله فى الرواق ورأى حزنه :

ـ « يا للحسرة يا أخى !.. أهو حقيقى إذن أننا خسرنا أميرتنا العظيمة هيبوليتا ؟ »

ذهل الرجل وصاح :

ـ « ماذا تعنى يا أخى ؟.. لقد جئت لتوى من القلعة وكانت فى خير حال .. »

ـ « (مارتللى) مر بالدير منذ ربع ساعة ، وقال إن سموها قد ماتت .. كل إخوتنا ذهبوا إلى الكنيسة ليصلوا لها من أجل رحلة طيبة إلى العالم الآخر .. هم يعرفون حبك لتلك السيدة النبيلة .. معنا كل الحق فى البكاء فقد كانت أمًا لبيتنا هذا ، لكن هذه الحياة ليست سوى رحلة ولسوف نلحق بها جميعًا .. فقط فلتكن نهايتنا مثلها ! »

ـ « أنت تحلم يا أخى ..إنها فى خير حال .. وأين الأميرة إيزابيلا ؟ »

ـ « تلك البائسة !.. لقد حكيت لها الخبر المريع وحاولت أن أعزيها .. »

ـ « ليكن .. لكن أين الأميرة (إيزابيلا) ؟ »

– « بكت كثيرًا وقالت إنها ستعتكف فى غرفتها .. »

ركض الأب إلى غرفة إيزابيلا فلم يجدها هناك .. سأل عنها الخدم فلم يعرف أحد شيئًا ..

راح يبحث بلا جدوى فى الدير والكنيسة ، وأرسل من يبحثون عنها فى كل صوب .

قدر الرجل أن إيزابيلا وقد سمعت بموت هيبوليتا ، قد حسبت أن الأمير قتلها وأنه عازم كل العزم على تنفيذ ما انتواه ؛ لذا بادرت بالاختباء فى مكان لا يبلغها فيه . الحقيقة التى عرفها فيما بعد هى أن (مارتللى) سمع صراخ (بيانكا) عندما قالت : « الأميرة ماتت ! » ، من ثم افترض أن هيبوليتا ماتت وجرى إلى الدير لينشر هذه الإشاعة .

هذا الفرار سوف يصيب الأمير بالجنون . هكذا قرر الأب أن يصحب عددًا من إخوته معه إلى القلعة لمقابلة الأمير ومحاولة إقناعه بأن يرحم تيودور .

فى الوقت ذاته أمر مانفريد بفتح أبواب القلعة لاستقبال ضيفه الغريب ومن معه . جاء حاملاً راية أولاً ثم من ينفخ فى النفير ، ثم مائة حارس .. ثم جواد مطهم عليه ألوان أعلام (فيشننتسا)

ثم راهب الاعتراف يعبث فى مسبحته ، ثم مجموعة من الخدم يلبسون لونى الراية . ثم ظهر مائة فارس يحمل كل منهم سيفًا ينوء بثقله ، ثم ظهر السيد .

هبت الريح فبدأ ريش الخوذة العملاقة يتطاير كما رآه مانفريد من قبل ، وقد شعر بأن هذا نذير ، لكنه كره أن يبدو منه ما يخون شجاعته .

قال :

– « استرح أيها الفارس ، وغدًا سوف تكون مواجهة عادلة ولسوف تقرر السماء جانبها ! »

لم يرد الفارس لكن مانفريد اقتاده إلى قاعة القلعة الكبرى . نظر الفارس إلى الخوذة العملاقة وانحنى امامها ، ثم نهض وأتى بإشارة للأمير كى يتقدمه . فى القلعة أشار له مانفريد كى ينزع سلاحه لكن الفارس أتى بعلامة رفض فقال مانفريد :

– « أيها الفارس .. هذا ليس من الدماثة فى شىء .. لكننى لن أخونك كما وعدت ولن تشكو أبدًا من أمير أوترانتو . أرجو ألا تكون نية الخيانة عندك أنت . سوف ينعم رفاقك بقوانين الضيافة .. ولسوف تأتيكم المرطبات حالاً .. »

واختار للقادمين جناحًا كانت هيبوليتا قد خصصته للحجاج .

كانت المأدبة قد أقيمت فدعا ضيوفه الصامتين إلى اتخاذ أماكنهم . وراح يحاول أن يوجه بعض الأسئلة للقادمين لكنه لم يتلق إلا إشارات .

فقط رفعوا أغطية خوذاتهم كي يمكنهم الأكل . قال مانفريد :

ـ « يا سادة . أنتم أول ضيوف يأتون هنا ويأكلون بين هذه الجدران ، ويرفضون الكلام معى .. وليس من شأن الأمراء أن يهينوا سمعتهم وكرامتهم مع البُكم .. تقولون إنكم جئتم من طرف فردريك (فيشننتسا) وأنا أعرف أنه كان رجلاً طيبًا كريمًا . وبرغم هذا تصرون على الصمت .. ليكن .. حسب قوانين الفروسية والضيافة أنتم تحت هذا السقف سادة . بما أن الطرب ليس طبيعتكم فلنكن تعساء محزونين !.. دعونا ننْهِ هذه المأدبة ونتحدث عما أريد أن تعرفوه .. »

وهكذا نهض مع ثلاثة فرسان إلى غرفة داخلية . أغلق الباب ودعاهم إلى الجلوس .

قال لكبيرهم :

ـ « أنت جئت على قدر فهمى يا سيدى ممثلاً للماركيز (فيشننتسا) لتطالب بالأميرة إيزابيلا .. ابنته .. التى ربطتها الكنيسة بابنى

(كونراد) . كذلك تريد أن أتخلى عن سلطانى وملكى لسيدك الذى يعتبر نفسه أقرب قريب بالدم للأمير ألفونسو ، أراح الله روحه .

يجب أن تعرف ويعرف سيدك أننى ورثت أوترانتو عن أبى (دون مانويل) الذى ورثها عن أبيه (دون ريكاردو) . (ألفونسو) مات بلا أبناء فى الأرض المقدسة وترك أملاكه لجدى مقابل خدماته له . ريكاردو كان رجلاً تقيًا نقيًا .. ولقد بنى الكنيسة المجاورة واحتفظ بأملاكه برعاية القديس (سانت نيكولاس) وبسيفه .. وهذا ما سأفعله يا سيدى . لكن أين سيدكم (فردريك) ؟.. هناك تقارير تقول إنه مات فى الأسر .. كلامكم يوحى بأنه حى وأنا لن أشك فى هذا .. من حقى أن أشك لكن لن أفعل .. آسف يا سادة لكن دمى حار ، وأنا أسألكم أن تضعوا أنفسكم مكانى .. ألن يثير حنقكم وأنتم الفرسان الشجعان أن يتم التشكيك فى أسلافكم ؟.. والآن أنتم تطالبون بالسيدة (إيزابيلا) .. أسألكم : هل لديكم السلطة كاملة لهذا ؟ »

هز الفرسان رءوسهم ..

قال :

ـ « حسن .. خذوها .. لكن هل تعلمون أننى أتعس البشر قاطبة ؟.. لقد مات ابنى كونراد أمس ! »

تبادل الفرسان نظرات الدهشة .

ـ « نعم يا سادة .. لقد قضى القدر على ابنى و (إيزابيلا) الآن حرة .. لم يعد هناك ما يثير اهتمامى فى الحياة ، وليس أفضل من الميتة التى يذهب فيها الفارس إلى القبر وهو يتحدى خصومه .. »

بدا على الفرسان أنهم لا يعرفون شيئًا عن الموضوع ، فقال لهم :

ـ « هل من الممكن أنكم لا تعرفون شيئًا عن الموضوع ؟.. لا تعرفون قصتى و (هيبوليتا) ؟ »

هزوا رءوسهم .

ـ « تحسبون أننى شديد الطموح ؟.. طموح ؟.. لن أختبر صبركم أكثر من هذا ، ولسوف أكلمكم مباشرة عن زواجى بالأميرة (هيبوليتا) .. أنا أحبها كأميرة وأهواها كصديق .. لكنها تعرف وساوسى وتشاركنى فيها .. فى الحقيقة زواجنا غير قانونى من الناحية الكنسية وأنا أتوقع فى كل لحظة أن يتم فسخه .. أرجو أن تغفروا لى هذه الدموع .. »

تبادل الفرسان النظرات ، متسائلين متى ينتهى هذا ؟

ـ « لم أعد راغبًا فى إدارة أملاكى .. كل ما أردته هو أن يكون هناك من يأتى بعدى ويحسن لقومى . أنا لا أعرف أى شىء عن سيدكم فردريك .. بالنسبة لى هو أسير أو ميت .. لا أتصور أن يحكم شعبى أمير قاسٍ غير كريم ، فأنا يا سادة أحب شعبى وهم يحبوننى والحمدلله . لكن يبدو أن السماء أرسلت إلىّ بقدومكم رسالة .. السيدة (إيزابيلا) حرة وأنا سأكون كذلك عن قريب . هكذا يمكننى أن أضحى وأتخذها زوجة لى وهذا سينهى الخلافات بين أسرتينا . أنا أحب هيبوليتا لكن على الأمير ألا يفكر إلا فى مصلحة شعبه .. »

هنا دخل الغرفة خادم يخبر الأمير أن القس (جيروم) وعددًا من إخوانه قد جاءوا يطلبون لقاءه ..

شعر مانفريد بقلق وخاف أن يخبر القس الفرسان أن (إيزابيلا) قد التجأت للدير طلبًا للحماية . لكنه قدر أن القس جاء يخبره بأنه أعاد الأميرة للقلعة . هنا دخل القس القاعة بلا استئذان .. وعلى الفور أعلن فرار (إيزابيلا) مع تأكيده على براءته .

لم يقل مانفريد سوى عبارات غير مترابطة وقد أدهشته الأخبار ، وضايقه أنها وصلت إلى الغرباء . راح فى حيرة بين رغبته فى أن يعرف التفاصيل وخشيته من أن يسمعها الغرباء .. رغبته فى أن يبحث عن (إيزابيلا) وخوفه من أن يشاركه الغرباء البحث .

سأله أحد الفرسان عن سبب فرار (إيزابيلا) من القلعة ، فنظر نظرة آمرة بالصمت إلى جيروم القس ، ثم قال إنه أرسلها إلى الدير بعد وفاة كونراد إلى أن يحدد الطريقة التى يتصرف فيها معها .

لم يجسر القس على الاعتراض لأنه كان يرتجف خشية على حياة ابنه .

وكان كبير الفرسان مندهشًا من التناقضات التى يسمعها . وهكذا جرى إلى الباب صائحًا :

ـ « أيها الأمير الخائن ..! سوف نجد (إيزابيلا) ! »

حاول مانفريد أن يبقيه ، لكن الفرسان الآخرين ساعدوا زميلهم .. هكذا تحرر وجرى إلى الساحة مناديًا مرافقيه ..

هكذا لحق به مانفريد وطلب من القساوسة أن يتبعوه . وأعطى تعليمات سرية بأن تتم مراقبة حرس الفارس ومرافقيه .

ما إن غادروا القلعة ، حتى كانت ماتيلدا التى كانت مولعة بالفلاح الشاب تفكر فى طريقة لإنقاذه .. أخبرتها النسوة أن مانفريد أرسل رجاله فى كل اتجاه بحثًا عن (إيزابيلا) .. هذا تضمَّن الحرس الذين عينهم لحراسة تيودور .

هكذا أطاع الحراس الأمر مدفوعين برغبتهم فى بعض التجديد ولذة المطاردة .

انسلت ماتيلدا من بين مرافقاتها وهرعت إلى البرج الأسود ، حيث عالجت مزلاج الباب الذى سجن الفلاح خلفه . وقدمت نفسها للفلاح المندهش .

ـ « أيها الشاب .. برغم أن تواضع الأنثى يدين الخطوة التى أقوم بها ، لكن الخير يدفعنى إليها .. هلم !.. اهرب .. إن أبواب سجنك مفتوحة ، وأبى وأتباعه ليسوا هنا لكنهم سيعودون حالاً .. فلتفر ولترعك السماء .. »

قال تيودور :

ـ « أنت ملاك بالتأكيد .. لا أحد سوى ملاك يتصرف .. يتكلم .. يفكر مثلك .. هل لى أن أعرف من أنت ؟.. لقد قلت : « أبى » فهل هذا ممكن ؟.. هل لدم مانفريد أن ينجب هذه الرحمة المقدسة ؟.. ولكن كيف جئت هنا وكيف تجاهلت سلامتك الخاصة ؟.. دعينا نفر معًا . والحياة التى أنقذتِها سوف تكرس من أجل حمايتك .. »

قالت ماتيلدا وهى تتنهد :

ـ « واحسرتاه !.. أنت أخطأت !.. أنا ابنة مانفريد فعلاً لكن لا خطر يحدق بى .. هلم .. فِر أيها الأمير بسرعة لأنه لو جاء أبى لصرت فى خطر داهم أنا وأنت .. »

ـ « أقسمى بالسماء انه لن يشك فيك أحد .. وإلا لبقيت هنا مهما أصابنى .. »

ـ « يا لكرمك !.. فلتكن واثقًا من أنه ما من خطر علىَّ .. »

ـ « إذن ناولينى يدك الجميلة كقسم .. ودعينى أغرقها بدموع امتنانى .. »

ـ « اصبر .. هذا لن يكون !.. فلترحل الآن .. ماذا تقول (إيزابيلا) لو رأتك عند قدمى ؟ »

قال فى دهشة :

ـ « ومن هى (إيزابيلا) ؟ »

هتفت الفتاة :

ـ « يبدو أنك مخادع .. »

ـ « أرجو أن تفسرى .. »

ـ « أنت تفهم جيدًا .. لكن لا وقت لهذا لأنى آمرك بالرحيل .. ذنب دمك فى عنقى لو أضعت الوقت فى جدل بلا طائل .. سوف أقتادك إلى الممرات السفلية التى عبرها هربت إيزابيلا .. من هناك تصل إلى الكنيسة حيث يمكنك طلب اللجوء .. »

ـ « ماذا ؟.. إذن لم تكونى أنت من ساعدتها فى العثور على تلك الممرات السفلية ؟ »

ـ « لم أكن أنا .. لكن لا تضيع الوقت .. إننى أرتجف خوفًا من كونك ما زلت هنا .. فلتهرب إلى الملجأ بسرعة .. »

ـ « لا .. ليس الملجأ .. الملجأ لفرار الآنسات الضعيفات .. أعطينى سيفًا يا آنسة ولسوف يرى أبوك أن تيودور ليس بالطراز الذى يهرب .. »

ـ « أيها الشاب المندفع ..!.. لن تجسر على رفع يدك أمام أمير أوترانتو .. »

ـ « ليس ضد أبيك .. أعترف بهذا .. كلما نظرت إليك نسيت أنه أبوك .. لكن أنا أعتذر يا آنسة .. »

هنا دوى صوت أنين من أعلى ، فتصلبا .

قالت الأميرة :

ـ « يا لَلسماء !.. هناك من يسمعنا !.. »

وأصغيا فلم يسمعا شيئًا .. قدرا أن هذا تأثير الهواء الحبيس .

هكذا أخذته ماتيلدا إلى حيث وضع أبوها دروعه فألبسته درعًا كاملاً يخفى وجهه ، وساعدته على الفرار من البوابة الخلفية .

ـ « تجنب المدينة .. وتجنب الناحية الغربية من القلعة .. لابد أن البحث على قدم وساق هناك من مانفريد والرجال .. خلف هذه الغابة نحو الشرق توجد سلسلة صخور ، تحتها متاهة من الكهوف تقود إلى البحر .. يمكنك الاختباء هناك إلى أن تستطيع إعطاء إشارة لسفينة قريبة من الشط ، تحملك بعيدًا .. لتكن السماء حليفتك .. وتذكر فى صلواتك ماتيلدا ! »

جثا على ركبتيه وتناول يدها برغم مقاومتها وطبع عليها قبلة ..

وعدها بأن يحاول فى أقرب فرصة أن يكون فارسًا ، وطلب منها أن تسمح له بأن يكون فارسها ..

قبل أن ترد الأميرة دوى الرعد فاهتز المكان .

ابتعدت الأميرة وأمرت الفتى بالرحيل بلهجة لا تقبل المناقشة . راقبها تيودور بعينين لا تطرفان حتى غابت ، وهكذا انتهت محادثة روت القلبين بعاطفة لم يجرباها من قبل .

اتجه تيودور شارد الذهن إلى الدير كى يخبر أباه بتحرره . هناك عرف أن (جيروم) غير موجود وعرف أن الجميع يبحث عن (إيزابيلا) ، وعرف تفاصيل قصتها .

تمنى لو يساعد (إيزابيلا) لكن لم يكن لدى الرهبان أية خواطر عن مكانها . وكان غارقًا فى الافتتان بماتيلدا حتى إنه لم يستطع أن يبتعد عنها ليبحث عن أخرى .

قرر أن يتجه إلى الغابة التى كلمته ماتيلدا عنها ، إلى أن يعود جيروم فى المساء .

هناك بحث عن الظلال القاتمة لتناسب الخواطر الكئيبة فى عقله ، وبحث عن الكهوف التى كان يأوى إليها النُسّاك فى الماضى ، والتى يزعمون فى الريف اليوم أنها مأوى للأرواح الشريرة . وكان بطبعه أميل إلى الشجاعة والإقدام ؛ لذا صمم على استكشاف هذه الأماكن المرهوبة .

لم يكن قد توغل كثيرًا عندما سمع صوت أقدام شخص يسبقه . وبرغم أنه كان يؤمن بكل ما يؤمن به من حوله ، فإنه لم يعتقد قط أن السماء يمكن أن تتخلى عن الأبرياء من أجل قوى الشر .

بدا له أنه من المعقول أكثر أن يكون المكان مليئًا بقطاع الطريق ، لا تلك المخلوقات الجحيمية التى قيل إنها تتحرش بالمسافرين .

أخرج سيفه وتوغل فى الغابة بهدوء . كان صوت صليل المعدن فى درعه كأنه صوت يهدد الشخص الذى يتقدمه ، والذى بادر بالفرار مسرعًا .. لكن تيودور ضيق المسافة أكثر .. فأكثر ..

وهنا سقطت امرأة عند قدميه . نهض ليساعدها على النهوض ، لكنها كانت فى حالة ذعر جعلته يخشى أن تفقد وعيها .

استعادت المرأة روعها ونظرت إليه فى امتنان وقالت :

ـ « نعم .. لقد عرفت الصوت من قبل .. »

قال تيودور :

ـ « لا أعتقد هذا ، ما لم تكونى أنت ليدى إيزابيلا كما أعتقد .. »

قالت فى رعب :

ـ « يا للسماء !.. إذن أنت لم تأت بحثًا عنى ..؟.. »

وألقت بنفسها عند قدميه متوسلة إليه ألا يعيدها إلى مانفريد .

ـ « مانفريد ؟.. لا يا سيدة .. لقد ساعدتك على الفرار من طغيانه مرة ، والآن سوف أساعدك على الفرار من متناول يديه .. »

ـ « إذن أنت المجهول الكريم الذى ساعدنى فى الفرار من القبو ليلاً ؟.. أنت ملاك بالتأكيد ولست شخصًا فانيًا ! »

قال لها :

ـ « دعينا لا نضيع الوقت فى الكلام ، فنحن لم نبتعد عن مدخل الكهف .. دعينا نتوغل داخله فلن أهدأ حتى أضعك بعيدًا عن الخطر .. »

ـ « هل ترى أنه من الحكمة أن نتوغل وحدنا فى هذا المكان المقفر ؟.. هل من الحكمة أن يرانا العالم سيئ الظن هنا معًا ؟.. أقولها برغم ثقتى فى نبلك وحسن مقصدك .. »

قال وهو يتنهد :

ـ « سيدتى .. أنت بارعة الجمال لكن روحى ملك واحدة أخرى .. »

هنا سمعا جلبة منعت تيودور من الاسترسال . وسمعا من يصيح :

ـ « (إيزابيلا) !.. (إيزابيلا) ! »

ارتجفت الأميرة وعادت إلى ذعرها السابق ، أما تيودور فحاول جاهدًا أن يقنعها بالتماسك ، لكن بلا جدوى . توسل إليها كى تبقى مختفية ، وتقدم ليمنع القادم من الدُنُوّ .

عند مدخل الكهف وجد فارسًا مدججًا بالدروع والسلاح ومعه فلاح يتكلم معه ، يقنعه أنه رأى السيدة تدخل الكهف . وكان الفارس يتأهب لدخول الكهف عندما برز له تيودور بالسيف وتحداه أن يدخل .

قال الفارس فى غطرسة :

ـ « ومن أنت ؟.. يا من تجسر على اعتراض طريقى ؟ »

ـ « أنا الذى لن يتحدى بشىء لا يقدر على عمله .. »

ـ « أنا أبحث عن السيدة إيزابيلا فلا تَعُق طريقى ، وإلا كان عليك أن تدفع ثمن إثارة غضبى .. »

ـ « عد من حيث جئت ، وإلا عرفت على الفور مَن الأخطر غضبًا .. »

كان الغريب هو الفارس الموفد من ماركيز (فيتشنتسا) الذى انطلق يقفو أثر الأميرة . وكان قد وجد أثر (إيزابيلا) .. طوح بسيفه بقوة فى اتجاه تيودور ، لكن (تيودور) كان على أتم استعداد لتفادى الضربة القوية بدرعه وقد حسب الفارس واحدًا من ضباط مانفريد ، ولو لم يفعل لكانت الضربة قد أزاحته نهائيًا .

البسالة التى أخفاها فى صدره كل هذه السنين تحررت على الفور .. واندفع نحو الفارس وكانت المواجهة عنيفة شرسة لكنها لم تطل .. لقد جرح تيودور الفارس فى ثلاثة مواضع ثم جرده من سلاحه ، بينما فقد هذا وعيه من فرط النزف .

كان الفلاح قد فر ليستغيث ببعض أتباع مانفريد فانطلقوا فى الغابة يبحثون عن (إيزابيلا) ، ووصلوا ليجدوا الفارس لحظة سقوطه على الأرض ..

شعر تيودور بالتأثر عندما عرف حقيقة الفارس وأنه ليس من أتباع مانفريد بل هو عدوه .. ساعد فى نزع دروع الفارس ووقف نزف الدم من جروحه ، فقال الفارس الذى استعاد القدرة على الكلام :

ـ « أنت عدو كريم .. كلانا أخطأ .. أنا حسبتك أداة لدى الطاغية وأنت ارتكبت ذات الخطأ .. تأخر وقت الاعتذار .. أنا أغيب عن وعيى فلو كانت (إيزابيلا) قريبة قل لها أن .. »

قال أحد الخدم :

ـ « إنه يموت !.. هلا صليت عليه يا (أندريا) ؟ »

قال تيودور :

ـ « أُسقوه بعض الماء ريثما أهرع إلى الأميرة .. »

واندفع إلى حيث كانت إيزابيلا فأخبرها بالقصة فى أسًى ..

أصيبت إيزابيلا بالذهول لدى سماع هذا الكلام ، وجرت إلى حيث كان الفارس الجريح . وكانت بسالة تيودور قد أعادت لها شجاعتها .. وجدت الفارس على الأرض فاقد النطق ، لكن ذعرها تجدد عندما عرفت خدم مانفريد . كادت تفر لولا أن طمأنها تيودور إلى أنهم غير مسلحين ، وهددهم بالموت لو حاولوا القبض على الأميرة .

فتح الغريب عينيه فرأى وجه امرأة .. قال لها :

ـ « ألست أنت (إيزابيلا) آل (فيشنتسا) ؟ »

قالت :

ـ « أنا هى .. فَلْتُعِدك السماء لنا ! »

قال وهو يكافح لإخراج صوت :

ـ « إذن أنت .. أنت .. ترين أباك .. »

صرخت (إيزابيلا) :

ـ « يا للرعب !.. يا للمفاجأة !.. ماذا أسمع وماذا أرى ؟.. أنت أبى ؟.. ماذا أتى بك هنا يا سيدى ؟.. تكلم !.. اطلبوا العون ، وإلا مات ! »

قال الفارس وهو يستجمع قواه :

ـ « هذا حق .. أنا فردريك أبوك .. جئت أصطحبك .. الآن أعطينى قبلة وداع و .... »

صاح تيودور :

ـ « لا تتعب نفسك يا سيدى ودعنا ننقلك إلى القلعة .. »

صاحت (إيزابيلا) :

ـ « ألا يوجد مكان أقرب ؟.. هل تسلم أبى للطاغية ؟.. لن أجرؤ على الذهاب معه ، لكنى كذلك لا أطيق أن أتركه .. »

قال فردريك :

ـ « يا بنيتى .. لا تقلقى .. بضع لحظات سوف تجعلنى بعيدًا عن أى خطر أرضىّ .. لا تتركينى !.. أريد أن أموت وعينى عليك ..

هذا الفارس الذى لا أعرفه سوف يحمى طهارتك .. لن تتخلى عن ابنتى يا سيدى .. أليس كذلك ؟ »

كان تيودور دامع العينين على ضحيته ، وأقنع الفارس بأن يقبل بنقله إلى القلعة . وضعوه على حصان أحد الخدم بعد ما ضمدوا جروحه على قدر وسعهم ، وتقدم تيودور المسيرة .

* * *

الفصل الرابع

ما كاد الركب الحزين يبلغ القلعة حتى قابلته هيبوليتا وماتيلدا . كانت (إيزابيلا) قد أرسلت خادمًا يبلغهما بقدومها ..

نقلت السيدات فردريك إلى أقرب غرفة بينما قام الجراحون بفحص جراحه .

تضايقت ماتيلدا لرؤية تيودور و إيزابيلا معًا لكنها تظاهرت بأنها مشغولة بعناق الفتاة .. وعاد الجراح ليبلغ هيبوليتا أن جراح فردريك ليست قاتلة . وهو يرغب فى أن يرى ابنته والأميرة .

سألت هيبوليتا فردريك عندما استعاد قواه ، عن السبب الذى جعله يسلك هذا المسلك الغريب لاسترداد ابنته .

كان فردريك برغم مقته البالغ لمانفريد قد أدرك نبل أخلاق هيبوليتا ، وإن استهواه جمال ماتيلدا . هكذا حكى لهيبوليتا قصته كاملة .

حكى لها إنه كان أسيرًا لدى الأعداء (*) فحلم بابنته التى لم يسمع عنها منذ كان أسيرًا .. حلم بأنها سجينة قلعة مهددة بالأهوال .. وأن عليه أن يدخل غابة معينة لو أراد أن ينقذها .

(*) طبعًا الأعداء هم العرب ، وفى أكثر من موضع يصفهم المؤلف بـ (الكفار) !.. لا تنس أننا نترجم كلامًا قيل فى الجانب الآخر وفى ذروة الحروب الصليبية .. ماذا تتوقع أن يقولوا عنا ؟!

كان يتوق الخروج ، لكن هذا كان مستحيلاً مع كل أصفاده .. كان اليأس قد استبد به عندما تلقى الأنباء أن الأمراء المتحاربين فى فلسطين قد دفعوا له الفدية . هكذا تحرر وأسرع إلى الغابة التى رآها فى حلمه وظل يجوبها مع رفاقه ثلاثة أيام دون أن يرى بشرًا .

لكن فى مساء اليوم الثالث وجدوا صومعة بها راهب يحتضر .. ساعدوه على أن يفيق .

قال لهم :

ـ « يا أبنائى .. أنا مدين لكرمكم ، لكن هذا بلا جدوى لأننى ذاهب إلى الراحة الأبدية .. لقد عانيت الكثير ، إلى أن تجسد لى القديس نيكولاس وأخبرنى بسر طلب ألا يعرفه فإن إلا لحظة احتضارى . هذه هى الساعة المختارة وأنتم الفرسان الذين على أن أخبرهم بالسر . ما إن تفرغوا من دفنى عليكم أن تحفروا تحت الشجرة السابعة على يسار هذا الكهف .. أيتها السماء !.. استقبلى روحى ! »

وإذ قال هذه الكلمات لفظ الرجل آخر أنفاسه .

قال فردريك :

ـ « عند الفجر بدأنا الحفر حسب التعليمات . على عمق ستة أقدام بلغت دهشتنا مداها لأننا وجدنا سيفًا عملاقًا .. ذات السيف

الذى تجدينه فى ساحة القلعة . على نصله الذى أخرجناه من الغمد وجدنا هذه الكلمات .. ولكن أنا أعتذر لك يا مدام . أنا أقدر مكانتك ولست براغب فى أن أجرح أذنيك بكلمات تخص شخصًا عزيزًا عليك .. »

ارتجفت هيبوليتا . لم يكن عندها شك فى أن فردريك أرسلته السماء ليضع الكلمة الأخيرة فى المصير الذى يهدد بيتها . نظرت فى حب إلى ماتيلدا وسالت دمعة على عينها ثم تماسكت وقالت :

ـ « هلم يا سيدى .. السماء لا تفعل شيئًا عبثًا .. على الفانين أن يتقبلوا إرادتها فى استسلام وخنوع .. قل ما قيل يا سيدى .. »

كاد فردريك يبكى من التأثر لدى رؤيته نبل الأميرة ووقارها .. وتلا الأبيات التى وجدها على نصل السيف :

ـ « حيثما تجد الخوذة التى تتمشى مع هذا السيف ..

بينما تحيط بابنتك الأخطار ..

يمكن لدم ألفونسو وحده أن ينقذ العذراء وأميرة قلقة .. »

قال تيودور فى نفاد صبر :

ـ « ما الذى فى هذه السطور يهم هاتين الأميرتين ؟.. ما الذى تخاف أن يصدمهما ؟ »

قال الماركيز :

ـ « كلماتك خشنة أيها الشاب ، وبرغم أن حظك كان حسنًا مرة .. »

قالت (إيزابيلا) التى أدركت أن خشونة تيودور سببها حبه لماتيلدا :

ـ « أرجو أن تغفر له يا سيدى .. فهو ابن فلاح لا يعرف كيف ينتقى كلماته .. »

هنا دوت ضوضاء فى الخارج ..

وإلى الغرفة اندفع مانفريد مع القس والأتباع ، وهرع إلى فراش فردريك ليواسيه على خسارته ، ويعرف منه تفاصيل العراك .. لكنه عندما رأى تيودور صاح فى رعب :

ـ « من جاء بك هنا أيها الشبح المخيف ؟.. هل حانت ساعتى ؟ »

صاحت هيبوليتا :

ـ « يا سيدى .. ماذا ترى ؟.. لماذا تثبت عينيك بهذه الطريقة ؟ »

قال مانفريد منقطع الأنفاس :

ـ « ألا ترين ما أراه يا هيبوليتا ؟.. هل بعث هذا الشبح لى أنا ؟ »

ـ « بالله عليك تعقل .. لا أحد هنا سوانا .. نحن أصدقاؤك .. »

صاح (مانفريد) :

ـ « أليس هذا ألفونسو ؟.. ألا ترينه ؟ »

ـ « هذا يا مولاى تيودور .. الشاب تعس الحظ .. »

الحقيقة أن الشاب عندما وضع الخوذة والدروع بدا شبيهًا بألفونسو إلى حد لا يوصف . ضرب مانفريد جبهته بيده وقال :

ـ « تيودور ؟.. تيودور أو شبح .. لقد أثار هلعى .. لكن كيف جاء هنا ؟.. ولماذا يلبس الدروع ؟ »

قالت هيبوليتا :

ـ « أعتقد أنه كان يبحث عن إيزابيلا .. »

ـ « نعم .. نعم .. لكن كيف فر من سجنه الذى وضعته فيه ؟.. هل هى إيزابيلا أم القس العجوز المخادع ؟ »

لم يَدْرِ القس جيروم ما يقول ؛ فهو فعلاً لا يعرف كيف فر تيودور ولا كيف ارتدى الدروع ؛ لهذا فضل الصمت ، وأقنع صمته مانفريد أنه ساعد على فرار الفتى .

قال تيودور :

ـ « سيدى .. أنت تظلم أبى أيما ظلم .. فلا هو ولا أنا بقادرين على التفكير فى شىء لا يريحك . .. »

ووضع سيفه باحترام عند قدمى مانفريد :

ـ « اضرب يا سيدى .. اضرب لو شككت فى أن هناك فكرة خائنة فى صدرى هذا .. »

أعجب كل من فى صف تيودور بالنبل والحماسة اللذين قيلت بهما هذه الكلمات ، وحتى مانفريد تأثر ، لكن إعجابه تلاشى أمام الرعب من فكرة تشابه الفتى مع ألفونسو .

قال :

ـ « انهض .. حياتك لا تهمنى حاليًا .. لكن عليك أن تخبرنى بعلاقتك بهذا الخائن العجوز هنا .. »

قال تيودور :

ـ « سيدى .. قصتى قصيرة جدًا .. فى سن الخامسة حملونى إلى الجزائر مع أمى التى خطفها القراصنة من سواحل صقلية . ماتت خلال عام حزنًا .. قبل أن تموت تركت لى ورقة أخفتها فى ثيابى تخبرنى أننى ابن كونت (فالكونارا) .. »

قال القس (جيروم) :

ـ « هذا صحيح .. أنا الأب تعس الحظ .. »

واصل تيودور :

ـ « ظللت فى الأسر حتى ما قبل عامين ، حتى اشتبكت سفينة القرصان مع سفينة أوروبية هزمته .. كشفت للقبطان عن شخصيتى فأوصلنى إلى صقلية . لكنى لم أجد أبى هناك .. عرفت أن قلعته الساحلية قد هوجمت أثناء غيابه وسويت بالأرض ، وأن أبى عرف بهذا لدى عودته فباع كل ما يملك وقرر أن يصير راهبًا ، لكن لا أحد يعرف مكانه . هكذا رحت آكل من عمل يدى وأجوب البلاد ، ولم أتصور حتى صبيحة أمس أن الأقدار تدخر لى مفاجآت غريبة . هذه هى قصة تيودور يا سيدى .. لقد بوركت إذ وجدت أبى .. »

انتهت القصة فتعالت همهمة الاستحسان من الواقفين .

قال فردريك :

ـ « هذا ليس كل شىء .. يمكننى أن أضيف ما أخفاه هو .. إنه متواضع لكنه واحد من أشجع الشباب الذين عرفهم العالم المسيحى .. وليس خطأه أنك اعتبرته شبحًا ! »

هنا تدخلت هيبوليتا :

ـ « سيدى .. من حق ضيفك أن يظفر ببعض الراحة .. يمكننا أن نتركه الآن .. »

وأمسكت بيده كى يبتعدا ، ومعهما باقى الواقفين .

أزمع تيودور أن يمضى الليل فى الدير مع أبيه ، لأنه عائد للقلعة غدًا (وهو ما سره كثيرًا) ، أما (إيزابيلا) وماتيلدا فقد ذهبت كلتاهما إلى غرفتها بعد تبادل مجاملات تقليدية خالية من الحرارة .

تذكرت ماتيلدا أن تيودور أنقذ (إيزابيلا) أكثر من مرة فى ظروف لا يمكن أن تكون صدفة .. صحيح أن عينيه لم تفارقا عينيها ، لكن ربما كان هذا على سبيل الخداع فى وجود الأبوين .

خافت أن تضر صاحبتها لو أحست بميل إلى حبيب (إيزابيلا) ..

(إيزابيلا) بدورها كانت لديها شكوك ، وكانت الشكوك أقوى .. كلام تيودور وتصرفاته تدل على أنه يحب .. من الواضح أن ماتيلدا هى مصدر هذا الحب .

هكذا تصارحت الصديقتان ، وفى ساعة متأخرة من الليل عرفت ماتيلدا نية أبيها أن يطلق أمها ويتزوج (إيزابيلا) .. وعرفت أيضًا أنه يزمع أن تتزوج هى فردريك أبا (إيزابيلا) على سبيل إذابة الفوارق بين الأسرتين لتظل أوترانتو له ..

(تيودور) أيضًا وجد صعوبة فى الاستيقاظ صباحًا لأنه قضى الليل يحلم بـ (ماتيلدا) . عندما استيقظ فى الصباح ولحق بأبيه عند قبر ألفونسو الطيب ، استجوبه أبوه فعرف حقيقة أنه يحب تلك الفتاة فقال له :

ـ « هذه عاطفة محرمة .. من الخطأ أن يحب المرء ابنة طاغية ، لأن علينا أن نعمل على انقراض نسله وذريته من الأرض .. »

ـ « وهل السماء تعاقب البرىء بذنب المسىء ؟.. ماتيلدا الطيبة مليئة بالفضائل .. »

ـ « تذكر أن أباها حكم عليك بالإعدام مرتين .. »

ـ « وتذكر أن ابنته ساعدت فى إنقاذى .. قد أنسى الإساءة لكنى لا أنسى الحسنات أبدًا .. »

ـ « تحت هذا القبر يرقد ألفونسو الطيب .. فرحة البشرية وفخر قومه .. سوف أحكى لك قصة مفزعة تطرد كل عاطفة من روحك .. لن تبقى لديك إلا الرغبة فى الانتقام .. هيه !.. من القادم ؟ »

هنا جاء صوت (هيبوليتا) وهى تدخل الكنيسة :

ـ « أكثر النساء شقاء !.. هل وقتك يسمح أيها الأب الطيب ؟.. لكن لماذا يركع هذا الشاب على ركبتيه ولماذا يرتسم الرعب على وجهه ؟.. لقد قضيت حياتى أصلى من أجل طفلى ، وهأنذا قد فقدت واحدًا منهما ويا للحسرة ! »

قال القس :

ـ « أيتها الأميرة التقية .. لا تتجادلى أبدًا مع القوة العليا .. الرب أعطى والرب أخذ .. فليتمجد اسمه ولتخضعى لحكمه .. »

ـ « أنا خاضعة لإرادته ، لكن هل يجب أن تؤخذ منى ماتيلدا كذلك ؟.. أرجو أيها الأب أن تصرف هذا الشاب ؛ فما من أذن يجب أن تسمع ما سأقول .. »

قال تيودور وهو ينسحب :

ـ « فلتحقق لك السماء كل أمنياتك أيتها الأميرة العظيمة !.. »

قالت هيبوليتا للقس كل شيء عن نوايا مانفريد .. أن تتزوج ماتيلدا بفردريك . لم يستطع الأب أن يخفى مَقْته لهذه النية ، لكنه قال على سبيل التمويه إنه لا يعتقد أن فردريك أقرب قريب بالدم لألفونسو يمكن أن يضع يده فى يد غاصب إمارته ويصاهره .

قال لها إنه غير راضٍ عن هذه الترتيبات وشجعها على أن ترفضها بعنف وحزم .

★ ★ ★

فى ذات الوقت كان مانفريد قد صارح فردريك بنيته ، وبموضوع الزواج الثانى . أصغى فردريك الذى انبهر بجمال ماتيلدا إلى العرض فى حماس .

لقد نسى عداوته لمانفريد وبدأ الأمر يروق له .

أبدى بعض الاعتراض الشكلى على مشروعات مانفريد ، وقال إنه لن يوافق على زواج (إيزابيلا) من مانفريد ما لم توافق هيبوليتا على الطلاق ..

تحمس مانفريد وهرع إلى جناح زوجته ليخبرها ، فعرف فى غيظ أنها ذهبت إلى الدير . خطر له أن تكون إيزابيلا أخبرتها بنواياه . وتساءل عما إذا كان ذهابها إلى الدير يعنى أنها ستبقى هناك إلى أن تنجح فى عرقلة الطلاق . وشك فى أن يكون للقس جيروم دور فى هذا .

هكذا هرع إلى الدير حيث كان القس ينصح هيبوليتا بشدة ألا ترضخ للطلاق بأى ثمن .

قال مانفريد :

ـ « مدام .. لماذا أنت هنا ؟.. لِمَ لَمْ تنتظرى عودتى من عند الماركيز ؟ »

قالت فى ارتباك :

ـ « جئت أطلب البركات من الأب .. »

قال مانفريد :

ـ « ومن بين كل الرهبان هنا ، لم تقصدى سوى هذا الخائن ؟ »

قال جيروم :

ـ « أيها الأمير سليط اللسان .. هل اخترت المحراب كى تهين فيه خدم المحراب ؟.. لكن خططك الجاحدة يا مانفريد معروفة للسماء ولهذه المرأة التقية .. سوف يعلو صوت رعد السماء على صوت غضبك .. لو استمررت فى محاولتك الآثمة للطلاق فإنها سوف تصدر ضدك مرسومًا بالحرمان الكنسى .. »

ـ « أيها المتمرد الأخرق !.. أنت تهدد أميرك ؟ »

قالها مانفريد محاولاً إخفاء ما شعر به من رهبة إزاء هذا التهديد .

ـ « أنت لست أميرًا .. اذهب فناقش أمورك مع فردريك .. »

ـ « لقد ناقشناها فعلاً .. »

هنا تساقطت ثلاث قطرات من الدم من أنف ألفونسو الطيب . شحب مانفريد وركعت الأميرة على ركبتيها .

قال القس :

ـ « راقب هذه المعجزة !.. دم مانفريد لن يمتزج أبدًا بدم ألفونسو الطيب .. »

قالت هيبوليتا :

ـ « سيدى .. فلنرضخ لإرادة السماء .. لو وافقت الكنيسة على حل روابط زواجنا فأنا موافقة .. تعال نصلّ من أجل سلامة ماتيلدا .. »

ـ « لكنك لن تبقى هنا حتى تقرر الكنيسة .. سوف تعودين معى إلى القلعة . لن أسمح بدخول هذا القس المخادع إلى بيتى .. سقف دارى المضياف لن يستقبل خائنًا بعد اليوم .. أما عن ابنك أيها القس فهو ليس شخصًا مقدسًا ولا تحميه الكنيسة ، وأنا أطرده من كل أملاكى .. من سيتزوج ابنتى ماتيلدا لن يكون ابن (فالكونارا) .. »

نظر مانفريد إلى القس فى ازدراء ، واقتاد هيبوليتا إلى الخارج ، لكنه على باب الكنيسة همس لأحد أتباعه أن يتوارى فى الدير ، وأن يخبره إن ظهر أحد من القلعة هنا .

★ ★ ★

الفصل الخامس

كان كل تصرف يقنع مانفريد أكثر فأكثر أن القس جيروم يدارى قصة حب بين (إيزابيلا) و(تيودور) . وزادت شكوكه مع تخلى القس عن وداعته السابقة .

بل إن مانفريد افترض أن القس اعتمد على دعم سرى من فردريك الذى توافق ظهوره مع ظهور تيودور ، مما يوحى بوجود اتفاق سرى . كما تضايق جدًا من الشبه بين تيودور وصورة ألفونسو . هو يعرف يقينًا أن الأخير مات دون ذرية ، وهذه الخواطر جعلت رأسه موشكًا على الانفجار .

الحل الذى وجده للخروج من هذا المأزق هو أن يسرع بزواجه من (إيزابيلا) ، وقد فكر فى هذا وهو يمشى بهيبوليتا عائدًا إلى القلعة .

هكذا راح يغرى هيبوليتا بالطلاق .. كانت هى تأمل فى أن تقنعه بالتخلى عن أملاكه لمنافسه ، لكنها أدركت استحالة هذا ، من ثم قالت لزوجها إنها ستطيعه فى أى شىء يريح ضميرها حتى لو كان الطلاق .. لكن لابد أن يعطيها أسبابًا أقوى ، وإلا فلن تتحمس لقرار كهذا .

ارتفعت آمال مانفريد بهذا الخضوع غير الكامل .. كان موقنًا أن نفوذه وثروته قادران على ترجيح كفة الطلاق عندما يعرض هذا على الكنيسة فى روما . ربما أمكن إقناع فردريك بهذه الرحلة لأن الرجل منبهر بفتنة ماتيلدا ، وهذه نقطة يمكن استغلالها .. يمكن لمانفريد أن يقرب ابنته منه أو يبعدها عنه حسب الحاجة .

طلب من فردريك أن يصرف رفيقيه الفارسين لأنه يريد الكلام معه على انفراد .

ما إن صارا وحيدين ، بدأ يكلم الماركيز عن ماتيلدا .. وراح يلمح إلى صعوبة إتمام الزواج ما لم ..

هنا اندفعت (بيانكا) وصيفة (ماتيلدا) إلى الغرفة وقد بدا من توحشها واتساع عينيها أنها فى أشد حالات الذعر .

- « سيدى !.. لقد حل بنا الخراب !.. لقد عاد من جديد !.. عاد ! »

صاح فى دهشة :

- « ما الذى عاد من جديد ؟ »

- « اليد !.. العملاق !.. أنا خائفة لدرجة الجنون !.. لن أنام فى هذه القلعة الليلة .. إلى أين أذهب ؟.. سوف آخذ حاجياتى غدًا .. ليتنى قبلت الزواج من فرانسسكو .. »

قال الماركيز :

ـ « حاولى أن تهدئى أيتها الشابة .. أنت فى أمان .. »

ـ « أنت كريم يا صاحب السمو ، لكننى لا أطيق البقاء ساعة أخرى هنا .. »

قال مانفريد :

ـ « إذن فارحلى .. أنت فقدت عقلك فلا تقاطعينا .. هذه الوصيفة معرضة لنوبات عقلية يا سيدى .. كنا نناقش أمورًا مهمة ، فتعالى معى يا بيانكا .. »

ـ « لا !.. أنا متأكدة من أنه ينذر بسموك .. فلماذا يظهر غير هذا ؟.. لو أنك صدقت دييجو لعرفت أنها ذات اليد التى رأينا قدم صاحبها .. قال لى الأب (جيروم) إن النبوءة ستتحقق يومًا ما .. »

قال مانفريد مغضبًا :

ـ « أنت تهلوسين !.. ارحلى واكتفى بإفزاع رفاقك بهذه السخافات ! »

ـ « هل تحسبنى أخرف يا سيدى ؟.. اذهب بنفسك إلى قمة الدرج لترى .. »

قال فردريك :

ـ « يرى ماذا ؟.. قولى لى أيتها الوصيفة الطيبة ما رأيت .. »

قال مانفريد :

ـ « هل تصغى إلى تخاريف خادمة سمعت قصص الأشباح حتى صدقتها ؟ »

قال فردريك :

ـ « ذعرها حقيقى ويدل على أن الأمر يفوق الخيال .. هيا أيتها الوصيفة .. أريد أن أسمع .. »

شكرته بيانكا وقالت :

ـ « أعرف أننى أبدو شاحبة لكننى سأسترد روعى بسرعة .. كنت ذاهبة إلى غرفة سيدتى إيزابيلا .. »

ـ « ادخلى فى التفاصيل .. »

ـ « كنت صاعدة لغرفة سيدتى إيزابيلا حسب أوامر سيدى ، وهى تنام فى الغرفة الثانية على اليمين أعلى الدرج . لهذا كنت صاعدة إليها .. »

صاح مانفريد :

ـ « فليهبنى الله الصبر .. ألن تصل هذه الوصيفة للب الموضوع أبدًا ؟.. »

ـ « كنت سأقول لسموك .. كنت قد صعدت ثلاث درجات ، عندما سمعت قعقعة سلاح كالتى سمعها دييجو عندما رأى العملاق .. »

تساءل فردريك :

ـ « أى عملاق هذا ؟ . هل قلعتك يسكنها العمالقة والعفاريت ؟ »

ـ « نعم يا سيدى .. نظرت لأعلى فرأيت لو صدقتنى عظمتك يدًا تلبس الدروع كبيرة كما يكون الكبر .. استبد بى الذعر فجريت حتى كدت أغادر القلعة .. قالت لى سيدتى ماتيلدا إن الأميرة هيوليتا تعرف شيئًا .. »

صاح مانفريد :

ـ « أنت وقحة !.. سيدى الماركيز .. هل تعاون خدم قلعتى جميعًا على ترويج الشائعات المؤذية لسمعتى ؟.. دعنا نتخلص من هذه الخرافات بأن نتم الزواج المشترك بين أسرتينا ، لكن صدقنى إنه لمما يسىء لأمير مثلك أن يصغى إلى قصص الخدم المأجورين .. »

قال فردريك :

ـ « أنا أزدرى اتهاماتك .. أنا لم أر هذه الآنسة من قبل ، ولم أعطها جواهر .. سيدى .. إن ذنبك هو ما يدينك .. ولسوف يلقى

بالشكوك علىَّ أنا .. احتفظ بابنتك ولا تفكر فى إيزابيلا . إن حكم السماء الصادر ضد بيتك يمنعنى من أن أتزوج منه .. »

أصيب مانفريد بالذعر من الحسم الذى قال به فردريك نواياه ، وحاول أن يهدئه .. صرف بيانكا ثم راح يتكلم عن محاسن ماتيلدا حتى بدا فردريك يتأرجح . لكنه كان حديث الإعجاب بماتيلدا ، وقد شعر من كلام بيانكا بأن السماء أعلنت الحرب على مانفريد . ثم إن قلعة أوترانتو كانت تمثل له إغراء قويًا . حاول أن يكسب بعض الوقت فسأل مانفريد إن كانت هيوليتا قبلت الطلاق .

قال مانفريد إنه واثق من زوجته ، وبوسع فردريك أن يسألها .

هنا جاء الخبر أن المأدبة جاهزة .. اتجهوا إلى هناك وأجلس مانفريد ضيفه إلى جوار ماتيلدا بينما جلس هو بين هيوليتا و (إيزابيلا) .

راح مانفريد يظهر مرحًا غير معتاد وسقى فردريك كئوسًا عديدة من الخمر . رفض هذا الأخير عروض مانفريد بدعوى أنه نزف الكثير من الدم . شرب مانفريد الكثير جدًا لكن ليس لدرجة فقدان صوابه .

انتهت المأدبة فى ساعة متأخرة ، وقد كاد مانفريد يصحب فردريك بعدها ، لكن الأخير تعلل بوهنه ورغبته فى الراحة .

لما تفرق الجمع غادر فردريك غرفته وسأل عما إذا كانت هيبوليتا وحدها ، فقال له أحد الخدم إنها فى هذه الساعة تنفرد بنفسها فى المصلى الخاص بها .

كان يشعر بانجذاب شديد نحو ماتيلدا وتمنى أن يجد هيبوليتا مستعدة للطلاق كما وعد زوجها . نسى كل العجائب التى جعلته يتهيب تلك الزيجة من ماتيلدا .

هكذا انسل فى خفة نحو جناح هيبوليتا آملاً أن يقنعها بقبول الطلاق . لقد اشترط مانفريد أن تكون الزيجة تبادلية بمعنى أنه لن يفوز بماتيلدا ما لم يتزوج مانفريد إيزابيلا .

لم يندهش من جو الصمت فى جناح هيبوليتا .. لقد استنتج أنها فى المصلى . كان الظلام يسود المكان ، وقد وارب باب المصلى فى خفة فرأى شخصًا جاثيًا على ركبتيه .

دنا أكثر فبدا له أن هذا ليس امرأة .. بل هو شخص فى عباءة طويلة صوفية ظهره له . كاد الماركيز يتراجع لولا أن نهض الشخص ووقف كأنما هو فى تأمل عميق .

قال الماركيز :

- « أيها الأب المبجل .. كنت أبحث عن الليدى هيبوليتا .. »

قال صوت غريب :

- « أتراك جئت إلى هذه القلعة من أجل هيبوليتا ؟.. »

واستدار إلى فردريك فشده هذا لدى رؤيته المحجرين الفارغين والفك العارى من اللحم . ملفوفين فى مسوح راهب .

صاح وهو يتراجع :

- « لتحمنى الملائكة الطيبة ! »

قال الشبح :

- « فلتستحق حمايتها !.. ألا تتذكرنى ؟؟.. تذكر غابات (جوبا) ! »

صاح فردريك :

- « أنت إذن الراهب المقدس ؟.. هل لى أن أفعل شيئًا لسلامك الأبدى ؟ »

- « أتراك تحررت من العبودية كى تطلب الشهوات الحيوانية ؟.. هل نسيت السيف المدفون وما نقش عليه ؟ »

- « لم أنس .. لم أنس .. لكن قل لى ما الذى تبغيه منى ؟.. ماذا بقى كى أفعله ؟ »

قال الشبح :

ـ « أن تنسى ماتيلدا ! »

وتوارى عن العيون .

تجمد دم فردريك فى العروق وظل بلا حراك بضع دقائق ، ثم سقط على وجهه أمام المذبح ، وراح الدمع يسيل من عينيه غزيرًا .. برغم هذا ظلت صورة ماتيلدا لا تفارقه .

لم يهدأ إلا عندما دخلت هيبوليتا إلى المصلى . رأت رجلاً على الأرض لا يتحرك فصرخت وقد حسبته ميتًا .. هكذا عاد إلى صوابه . نهض بوجه مبلل بالدمع ، وكاد يفر ، لكنها استبقته وهدأته بصوت رخيم ، وطلبت منه أن يفسر لها سبب وجوده .

قال الماركيز :

ـ « أيتها الأميرة التقية .. »

وصمت ..

قالت له :

ـ « بالله عليك ياسيدى أفصح .. ما معنى هذه الأصوات ؟.. ما الآلام التى ما زالت الأقدار تدخرها لهيبوليتا التعسة ؟.. أتصر على الصمت ؟.. أتوسل إليك .. »

وسقطت على قدميها ، وأردفت :

ـ « قل لى ما فى قلبك من أسرار .. تكلم بالله عليك .. هل ما تعرفه يتعلق بابنتى ؟ »

ـ « لا أقدر على الكلام .. »

وفر منها قاصدًا جناحه الخاص . على الباب قابل مانفريد الذى كان ثملاً وأراد أن يضيع ساعات الليل فى الغناء والعربدة . بالطبع لم يكن مزاج فردريك يسمح بهذه الدعوة ..

دفع مانفريد فى خشونة ودخل غرفته وأغلق الباب ، ثم وضع المزلاج . هكذا ابتعد الأمير المغرور الذى عجز عن تفسير هذا المسلك ، وهو على استعداد لارتكاب أى عمل متهور من شدة الغضب .

هنا قابل الخادم الذى زرعه كجاسوس فى الدير على تيودور وجيروم .. كان متقطع الأنفاس ... قال له إن تيودور وسيدة من القلعة هما الآن فى خلوة فى قبر ألفونسو بكنيسة سانت نيكولاس . استطاع الخادم أن يرى تيودور ، لكن الظلام الكثيف منعه من معرفة السيدة .

استنتج مانفريد من رفض (إيزابيلا) له أنها كانت تبغى لقاء تيودور . كان غاضبًا عليها وعلى أبيها ، لذا انطلق سرًا نحو الكنيسة .

مهتديًا بضوء القمر الخافت ، ماشيًا فى الممر بين المقاعد ، تسلل نحو قبر ألفونسو .. هنا سمع همس من يبحث عنهما .

- « هل هذا يعتمد على ؟.. يا للحسرة !.. مانفريد لن يوافق على اتحادنا أبدًا .. »

صاح الطاغية وهو يسحب خنجرًا :

- « لا !.. هذا سوف يمنعه ! . .. »

وغرس الخنجر فى صدر المتكلم .

صاحت ماتيلدا :

- « آه !.. لقد نُبحت !.. أيتها السماء الطيبة !.. استقبلى روحى ! »

وسقطت أرضًا .. وصاح تيودور :

- « أيها الوحش الآدمى !.. ما الذى فعلته ؟ »

ووثب عليه ونزع منه الخنجر ، فصاحت ماتيلدا :

- « توقف !.. أوقف يدك الآثمة !.. هذا أبى ! »

أفاق مانفريد من غيبوبته ، فحاول أن يسترد الخنجر من تيودور ليطعن به نفسه .. قاومه تيودور وجاء بعض الرهبان على صوت العراك ، فتعاون بعضهم على وقف نزف ماتيلدا ، بينما راح آخرون يمنعون مانفريد من قتل نفسه .

قبلت ماتيلدا مصيرها فى صبر ، فراحت تنظر فى امتنان لتيودور . وكانت عندما تقدر على الكلام تتوسل إلى الموجودين أن يُعنّوا بأبيها .

سمع القس الأنباء فجاء مسرعًا .. نظر نظرة عتاب إلى تيودور ثم استدار إلى مانفريد وقال :

- « الآن أيها الطاغية .. فلتر سقوط المصائب على رأسك الدنس .. دم ألفونسو طلب من السماء الانتقام ، والسماء أرادت أن تسفح دم ابنتك عند قدمى تمثال ألفونسو .. »

صاحت ماتيلدا :

- « أيها القاسى !.. أنت تزيد من آلام أب !.. فليغفر الله لأبى كما غفرت له . أنا لم آت هنا كى ألقى تيودور ، لكننى وجدته يصلى هنا .. أمى أرسلتنى كى أطلب الشفاعة لك يا أبى .. قل لى إنك تسامح ابنتك .. »

صرخ مانفريد :

- « هل يغفر السفاح لضحاياه ؟.. حسبتك إيزابيلا .. لكن القدر قاد يدى كى تطعن طفلتى .. »

همست ماتيلدا :

ـ « يا رباه !.. إننى أغيب .. هلا حملتمونى إلى القلعة لأنعم بأن تغمض أمى عينى ؟ »

حاولوا إقناعها بألا تتعب نفسها ، لكنها كانت مصرة ، من ثم وضعوها على محفة ونقلوها كما طلبَتْ . وراح تيودور يحاول أن يمنحها الأمل فى الحياة . بينما راح جيروم يتلو عليها الصلوات ويلقنها الطريق إلى الخلود . وتبع مانفريد المحفة فى قنوط .

طارت هيبوليتا مسرعة وقد بلغتها الأخبار المفجعة كى تلحق بطفلتها . لكنها إذ رأت الموكب تخلت عنها القوة التى منحها الحزن إياها ، وسقطت فاقدة الوعى .

طلبت ماتيلدا من أبيها وأمها أن يدنوا منها ، فأمسكت بيديهما ووضعتهما على قلبها . سقط مانفريد على الأرض ولعن اليوم الذى ولد فيه .

أمرت (إيزابيلا) الخدم أن ينقلوا ماتيلدا إلى أقرب غرفة لتنهى هذا المشهد . وعكف الأطباء على فحص جرح ماتيلدا .

كان نبض هذه الأخيرة يخفت وبردت يداها ؛ مما جعل آمال الشفاء تضمحل . تبع تيودور الجراحين خارج الغرفة وسمعهم يلفظون الكلمة المخيفة ، فقال فى جنون :

ـ « ما دامت لم تصر لى وهى حية ، فلسوف تكون لى فى الموت !.. أبى !.. ألا تشبك أيدينا ؟ »

صاح القس :

ـ « ما هذا الحمق ؟.. هل هذا وقت الزواج ؟ »

قال تيودور :

ـ « هو كذلك !.. هو كذلك !.. للأسف لا يوجد وقت سواه ! »

قال فردريك :

ـ « أيها الشاب .. أنت اخترت وقتًا سخيفًا لهذا .. وماذا يعطيك الحق فى طلب يد الأميرة ؟ »

ـ « حقوق أمير .. سيد أوترانتو ... هذا الرجل أبى أخبرنى بمن أنا .. »

قال فردريك :

ـ « أنت تحلم .. لا أمير لأوترانتو سواى .. »

قال القس جيروم :

ـ « سيدى .. هو يقول لك الحقيقة .. ما كنت أنوى أن أفشى السر مبكرًا لكن عاطفته الحارة كشفت الأمر .. فلتعلم أنه عندما أبحر ألفونسو الى الأرض المقدسة .. »

صاح تيودور :

ـ « وهل هذا وقت التفسيرات ؟.. هلم يا أبى واربطنى بالأميرة فلسوف تكون لى .. حبيبتى ماتيلدا ! »

أشارت لـه (إيزابيلا) كى يصمت لأنهـا قدرت أن مـاتيلدا شارفت النهاية .

فتحت ماتيلدا عينيها من جديد على الضوضاء ، فقالت أمها :

ـ « يا روح قلبى .. لا تقلقى فلن أتركك أبدًا ! »

هنا أغمضت ماتيلدا عينيها للأبد .

انتزعت النسوة هيبوليتا من ابنتها ، لكن تيودور هدد بقتل كل من يحاول إبعاده عنها . وطبع ألف قبلة على يديها اللتين اكتسبتا لون الصلصال .

بينما المرأتان فى الطريق ، قابلتا مانفريد الذى رأى على وجوه النسوة الواقعة التى كان يخشاها .

صاح فى حيرة :

ـ « ماذا ؟.. هل ماتت ؟.. »

هنا هوى الرعد فاهتزت القلعة حتى أساساتها ..

شعر القس بأن اليوم الأخير قد جاء . اندفع وهو يجر تيودور بالقوة إلى ساحة القلعة . هنا تهاوت جدران القلعة خلف مانفريد بقوة هائلة ، وظهر شبح ألفونسو متضخمًا بين الخرائب ..

صاح الشبح :

ـ « انظر يا تيودور ، أيها الوريث الحقيقى لأوترانتو !.. »

هنا دوى الرعد من جديد ، ثم صعد الشبح إلى السماء ، حيث ازدحمت الغيوم .. وتوارى عن العيون .

سقط الجميع على ركبهم ، وصاحت هيبوليتا فى مانفريد :

ـ « سيدى !.. فلتر هباء العظمة الإنسانية !.. كونراد قد ضاع .. ماتيلدا ضاعت ..!.. لقد جاءت نهايتنا وتيودور هو أمير أوترانتو الحقيقى .. ألا ينبغى أن نستغل لحظاتنا الأخيرة فى طلب المغفرة ؟.. »

صاح مانفريد :

ـ « أنت امرأة بلا خطايا ، لكنك تعسة .. تعسة بسبب جرائمى .. لقد انفتح قلبى أخيرًا للومك التقى .. دعينى أهيل العار على رأسى ولألق عليكم اعترافى الذى لن يغير شيئًا .. أصغوا يا سادة .. ولتكن قصتى إنذارًا لكم ..

« تعرفون أن ألفونسو مات فى الأرض المقدسة .. لكنه لم يمت ميتة عادلة ، وإلا فلماذا يشرب مانفريد هذه الكأس المريرة ؟.. كان جدى (ريكاردو) هو ياوره وقد مات ألفونسو بالسم !.. وتم تزوير وصية مزورة تجعل من ريكاردو وريثه . لقد أذنب لكنه لم يفقد ماتيلدا ولا كونراد .. أنا الذى دفع ثمن اغتصاب العرش !.. أثناء العودة حاصرت جدى العاصفة فنذر أن يبنى ديرًا وكنيستين لو ظل حيًا إلى أن يبلغ أوترانتو . تم قبول التضحية وإن رأى فى منامه نبوءة تنذره بأن ملكه سيستمر إلى أن يظهر فى أوترانتو سيد جديد ينمو ويحتل القلعة كلها . ولسوف يستمر حكمه ما دام يخرج من صلبه ذكور . كنت أنا آخر هذه السلالة .. لا أعرف كيف أن هذا الشاب وريث ألفونسو ، لكنى لا أشك فى ذلك . هذه أملاكه وإننى لأتخلى عنها له ، لكنى لم أعرف لألفونسو وريثًا .. »

قال القس جيروم :

ـ « ما بقى هو دورى فى القصة .. حينما اتجه ألفونسو إلى الأرض المقدسة قذفت به العواصف إلى صقلية . وانفصلت عنه السفينة الأخرى التى كانت تحمل ريكاردو جدك .. فى صقلية ارتبط ألفونسو بعذراء جميلة اسمها فكتوريا . كان تقيًا فلم يفكر فى العلاقات المحرمة ، إنما تزوجها .. لكنه كان مرتبطًا بعهد سلاح مع رفاقه ، لذا أجل مراسم الزواج حتى يعود من الحملة

الصليبية . ترك فى بطن زوجته طفلة .. لكن الزوجة سمعت أنباء موت زوجها وأن ريكاردو قد خلفه . ماذا كان بوسع امرأة فقيرة بلا عون أن تفعل ؟!.. لكن عندى وثيقة .. »

قاطعه مانفريد :

ـ « قصتك لا تحتاج إلى إثبات .. كل أهوال هذه الأيام الثلاثة تؤكد صدق كلامك خيرًا من أية وثيقة .. »

ـ « الطفلة التى أنجبتها فكتوريا كبرت وتزوجتها أنا .. وظل السر فى صدرى بعد موت فكتوريا . قصة تيودور تحكى الباقى .. »

فى الصباح وقع مانفريد على تنازله عن القلعة ، مع استحسان هيبوليتا . وقرر وزوجته أن يدخلا الدير باقى حياتيهما .

عرض فردريك زواج ابنته إيزابيلا على الأمير الجديد . وهى فكرة سابقة لدى هيبوليتا . لم يكن قلب تيودور الحزين يتسع لحب جديد ، لكنه بعد كلام كثير مع إيزابيلا أدرك أنه لن يعرف السعادة إلا مع واحدة تنسيه الحزن الذى تملك روحه .

تمت

هوراس والبول

1764

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب



66



من قلعة (أوترانتو) خرجت الجذوة التى أشعلت موهبة الكتابة لدى طابور من الأسماء ، منها : (آن راتكليف) و (مارى شيللى) و (برام ستوكر) و.. و.. ومن الطريف أن تطالعها اليوم ؛ لأنها تبدو كأنها كتيب تعليمى لمن يرغب فى كتابة الأدب القوطى ، وقد حفرت هذه القصة الكثير من القوالب الجاهزة فى الأذهان ، منها البطلة الشفافة الرقيقة التى تفقد وعيها بسهولة تامة ، والتى تركض شاحبة خائفة فى ممر طويل ، والقلعة المرعبة التى تضربها البروق طيلة الوقت ، ولا تكفُّ الريح عن الصفير فى أروقتها .. إلخ ..

العدد القادم

عبودية الإنسان

الثمن فى مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

